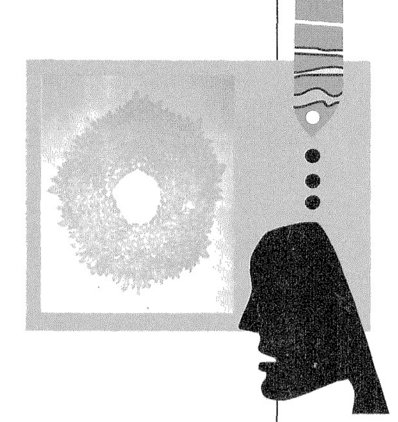
إبداعات عالمية



335

قصص من الأدب اليباني

زهرة الصيف



تأليف: مجموعة من القاصين اليابانيين

ترجمة: نجاح سفر

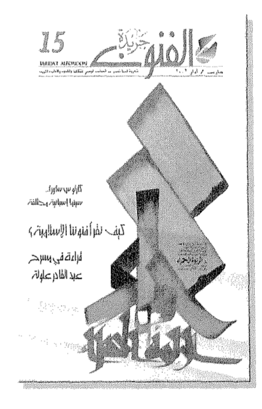
مراجعة: د. إسماعيل صافية

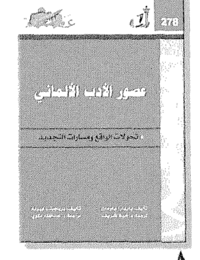
سلسلة شهرية محكمة تصدر عن المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

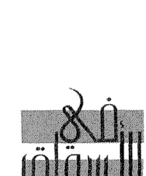
أبريل 2002

إصدارات المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب



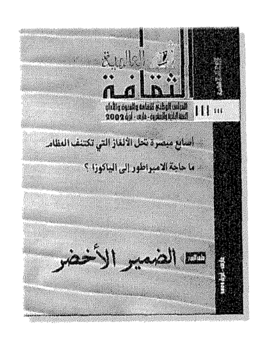














زهرة الصيف

(قصص من الأدب الياباني)

تأليـــف: مجموعة من القاصين اليابانيين

ترجمة : نجاح سفر

مراجعة: د. إسماعيل صافية

إهداء ٢٠٠٧

الدكتور / عاطف رمضان دياب

جمهورية مصر العربية

العدد 335 أبريل 2002 [1]



تصدر كل شهرين عن
المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

www.kuwaitculture.org

سعر النسخة

الكويت ودول الخليج	500 فلس
الدول العربية الأخرى	ما يعادل دولاراً أمريكيا
خارج الوطن العربي	دولاران أمريكيان

الاشتراكات

دولة الكويت

للأفراد	10 د.ك
للمؤسسات	20 د.ك

دول الخليج

للأفراد	12 د.ك
للمؤسسات	24 د.ك

الدول العربية الأخرى

للأفراد	25 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	50 دولارا أمريكيا

خارج الوطن العربي

للأفراد	50 دولارا أمريكيا
للمؤسسات	100 دولار أمريكي

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب وترسل على العنوان التالي:

السيد الأمين العام
للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب
ص. ب: 28623 – الصفاة – الرمز البريدي13147
دولة الكويت

ردمك ٠ – ٠٧٤– ٠ – ٩٩٩٠٦
ISBN 99906 - 0 - 074 - 0

• زهرة الصيف

قصص من الأدب الياباني

العنوان الأصلي :

• The Catch and Other War Stories

الطبعة الأولى - الكويت

المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب ، 2002م

إبداعات عالمية - العدد 335

صدر العدد الأول في أكتوبر ١٩٦٩م

تحت اسم سلسلة من المسرح العالمي

أسسها أحمد مشاري العدواني

(١٩٢٣ - ١٩٩٠)

اسم اللوحة : بدون عنوان
الفنان : كيم هونغ - جوو - كوريا
المادة : زيت على قماش
القياس : ١٣٠ x ١٦٢ سم

مقدمـــــة

من بين أهوال الحـرب ينشطر الوعي الإنسـاني إلى مـدين ومدان، ومع هذه التحولات يظهر عبث غير معقول من التخاذل والالتواء والتخلي والتلقائية البلهاء ، التي على رغم تضررها الكبير قد لا تنتج شيئا ذا بال. يتزلزل شأن الأدب كأي قضية أخرى أو يتبلبل الأمل في ضرورة الكتابة أصلا، لكن سلطان العقل والإبداع غالب أبدا، فينفلت الخيال إلى مبتغاه حرا طامحا لتجاوز ما ينبغي لفردية الإنسان أن تفعله حتى لو كانت عاجزة بشرط الاضطراب والدمار ومعوقات الواقعية والالتزام بفكرة المجتمع وتقاليده، فينمو الفن هادرا في السر ثم علانية، ويُختتم الظرف بحرية التحرك والتقدم نحو مستقبل لا يعاني فيه الفرد عناصر الضغط اليومي فقط، بل- وعلى وجه الدقة- يحصر وعيه في القيمة الكبرى التي تمنحها الحياة ولا تزال غير مستكشفة.

ولسوف يستغرب أصحاب المذاهب الواقعية والصافية من غياب مشاهد القتال والعمليات الحربية في هذه القصص الأربعة، حيث لن نجد وصفا مسهبا للدم أو دوي النار في المعارك ولا حرب عصابات ولا حتى أوصالا مقطعة أو معلقة على أسلاك شائكة. هي قصص في النهاية عن الحرب، وعن مشاعر إنسانية بسيطة أثناء المعارك أو بعدها، فهي ذات مضمون بشري خالص ولا يعنيها في النهاية سوى انتمائها إلى الشخصية اليابانية، التي هي صافية ومرهفة حتى طوال ما ندعوه بشيء اسمه الحرب.

هدفنا من هذه المجموعة هو تقديم حالات إنسانية تتقاتل فيها البشرية من أجل شيء مزعوم لا يستحق كل هذا العناء على مسرح الحرب. وهذه القصص تتجاوز تاريخ الحالة النفسية بشخصياتها، على الرغم من أنها - بطريقة ما - جزء من سيرتهم الذاتية التي تخص عالم الأدب. كل منها قابلة لمتعة القراءة كشكل قصصي، بينما تزودنا - في الوقت نفسه - بتنويعات زاخرة من الشخصيات والأحوال وظروف المكان التي لا توجد في قصص أخرى كثيرة.

كل مجموعة القصص هذه مكتوبة بعد الحرب العالمية الثانية: «الصيد» ١٩٥٨، «ساكوراجيما» ١٩٤٦ «زهرة الصيف» ١٩٤٧، «عظام» ١٩٤٨، لأربعة كتاب من اليابان، كل منهم له أسلوبيته الخاصة كما أنه يحرك شخصياته بدرجة فنية تختلف من أحدهم إلى الآخر.

قصة «الصيد»، قصة المعرفة، فالغرض من حكايتها يكمن في تطور تلك العلاقة الإنسانية المستجدة بين أطفال القرية وذلك الطيار الزنجي الأمريكي الذي أمسكوا به وسجنوه في مخزن وكانوا يعاملونه كحيوان غريب. المعرفة هنا سيف ذو حدين، فهي لا تعني مجرد اكتشاف إمكان وجود علاقة إنسانية غريبة بين متناقضين، أو بالأحرى عدوين، لكن كذلك لاكتشاف ذلك الشيطان المتأصل بنفسه في مجتمع البشر. كان أوي بعد في السادسة من عمره حين اندلعت الحرب، فنلحظ ذلك الحس البالغ بجماليات الشخصية في الصيد، فهي لم تكن تسجيلا لحادثة خاصة أو سيرة ذاتية، بل هي ناتج خيال استحضر بشكل حسي طفلا في

بدايات مرحلته المدرسية مع عدو يراه كالاستعارة الغريبة للمرة الأولى. أسلوبية «أوي» تستدعي تحرره من استخدام المجاز غير الشائع بين معظم كتاب اليابان، الذين يوظفون هذه التقنية باقتصاد وحذر كبيرين. لكن يبدو في أحيان كثيرة أنه يستمتع بلعبة الاستعارة لمجرد كونها لعبة، فيتطابق المجاز قويا ورائعا مع حس أولاد القرية الذكي بالمهزلة. ويمكن توصيف هذه القصة بـ «الوحشية الضارة».

أما قصة «ساكوراجيما» فتحكي عن ضابط صف بحرية يشارك مباشرة في الحرب لكن بشكل سلبي ومعارض، فنحس أنه متورط عاطفيا بالحرب لكنه يتظاهر بالتحفظ والحياد. وعلى رغم أن القصة تبدأ بانغماس البطل في تبذلات أخلاقية من معاقرة الخمر وقضاء الليل مع عاهرة، إلا أن استجاباته لمثل هذه التجاوزات كانت على العموم مقهورة. ولأنه كان يخاف الموت فهو يحاول التأقلم مع «طوقه المشدود» ومسايرته بدلا من التعامل معه بشكل عنيف. وقد استفاد الكاتب من خدمته في قطاع البحرية في كتابته للقصة، وهو يحكيها بأسلوب مكثف ومحتوى ثر. كان أ«و ميزاكي» يحس دائما أنه يائس ومعزول، لكنه قاوم دائمًا إغراءات العدمية، وركز بدلا من ذلك على استنطاق ظروفه الواقعية بشكل مدروس. كما أحجم الكاتب عن الوصول بصراع الدراما بين ذلك الفاشستي «كيرا» والراوي إلى الذروة، لأن كيرا يجسد مطلب آلية الحرب في اليابان، التي تفترض سيطرة لها غموض وغرابة تحدد كامل المشهد النفسي للحرب، وهي ضد أي صراع مفتوح بإمكانه الاستغناء عن إحباطاته الذاتية. لدى «أوميزاكي» رغبة الحياة

تعني الرفض، على الرغم من معارضة من يفرضون القتال على الجنود وذلك الصراع الداخلي الذي يكثف الانتباه على بقع داكنة في عالم يعيش بالصوت والصورة.

وبخصوص قصة «زهرة الصيف» فهي سيرة ذاتية مباشرة أكثر منها خيال كاتب. فقد عاش هارا في هيروشيما وقت إلقاء القنبلة الذرية عليها في السادس من أغسطس عام ١٩٤٥. يروي فيها ببساطة ما حدث في ذلك اليوم المشؤوم والأيام التي بعده. لا يكتب تعليقا ولا يعبر عن خاطرة أخلاقية، فقط يروي: يقدم صورة شديدة الكثافة ومرعبة لذلك الذي لا يوصف في تلك التجربة. أما ذكرى هذه اللحظة الباهظة فقد كانت أحد أهم العوامل التي ساعدت في انتحار هارا بعد أربع سنوات من نشر قصته «زهرة الصيف». هي إذن تجربة شخصية مركزة بأسلوب قصصي متحفظ متقشف بخصوص الكلام أو التعليق، كان هذا جزءا من تراث الأدب الياباني الذي يؤكد على الجانب الشخصي للتجربة بمظهر ما، مفضلا أن يتعامل معها عبر مخيلة مضغوطة وضمنية.

وأخيرا نصل إلى قصة« عظام» للمرأة الوحيدة التي تشترك في هذه المجموعة. إن «فوميكو هاياشي» كاتبة تقليدية لكنهاهنا تصف بشكل دقيق وبلمسة رقيقة شفافية ردود الأفعال تجاه الألم الذي يكسب التجربة واقعية مقنعة نحو ما حدث، فهي تحكي عن أرملة حرب لجأت إلى الشوارع وانحرفت عن الفضيلة.

الفكرة مطروقة، لكن البطلة في «عظام» هي الضحية السلبية إلى درجة القسوة البالغة. هي لعبة ميكانيكية برهنت على نوع ما من الجبرية الشخصية، وهي كذلك كانت ضحية الحرب والهزيمة

التي نالتها بلادها، لكن المرء يلمس في تلك القصة الحيوية المفرطة داخل هذه الشخصية: لقد مُحِقت تحت وطأة الظروف بالغة الأسى، لكنها- وكالعنقاء- تبدأ حيويتها النسوية الفريدة؛ فتبزغ من ذاتها لتسترد نوعا من الثقة بالنفس على رغم اليأس من الوجود. كانت تكسب أكثر مما تخسر، وهذه حقيقة يؤكدها الرعب ورغبة الحياة من جانب آخر.

هنا، لا ينبغي للقارئ أن يتوقع أكثر مما جاز لهؤلاء الكتاب أن يعرفوه عن الحرب، فهو في النهاية سوف يحس بذلك الأسى الشفيف الذي سيغلف روحه بعد القراءة، كأنه قد قام بالصلاة على أرواح كل عزيز فقدناه في مثل هذه الظروف.

هي الحرب التي يفرضها الكبار على جند لا يملكون من مصيرهم سوى تمسكهم بالحياة ولو في شكلها الأدنى. وعلى رغم هذه الحروب التي نظن أنها لن تزول، فهناك أمل يكبر مع مضي الأيام في تخفيف وقع نتائجها ومحاولة الخلاص إلى إنسانية أعلى نتمنى أن نعيشها قبل الزوال.

نجاح سفر

الصيد

«كينزابورو أوي»

المؤلف في سطور

كينزابورو أوي Kenzaburo Oe

- ولد في شيكوكو عام ١٩٣٥.
- عمل صحافيا منذ صباه ودرس الأدب الفرنسي في الجامعة.
- نال جائزة أوتاغاوا عن قصته «الصيد»، عام ١٩٥٨ وجائزة نوبل للآداب عام ١٩٩٤ عن روايته «الصرخة الصامتة».
- تأثر فترة بجان بول سارتر ويعد من أكثر كتاب اليابان إثارة للقلق، على رغم أنه يكتب بشاعرية عن عالم تمتزج فيه الحياة والأسطورة بشكل يؤثر في وضع الإنسان في الوجود المعاصر.
- له مجموعات قصصية قصيرة عدة، وكتب عددا من الروايات منها: «فعل غريب»، «كبرياء الموتى»، «الفاسق»، «رهان العصر»، «غمرني الطوفان»، «علينا أن نتجاوز جنوننا»، «مسألة شخصية».

كنت وأخي الصغير عند محرقة مؤقتة عند سفح الوادي، وهي محرقة بدائية صنعت من بعض الأشجار الكثيفة التي قطعت بعد تجريف طبقة سطحية من الأرض. وكنا نخدش بالعصي سطح الأرض الطري الذي يفوح برائحة الدهن والرماد، وقد غرق سفح الوادي بالشمس الغربة مع ضباب بارد كأنه مياه جوفية اندفعت من الغابة. انثال ضوء عنبي على القرية الصغيرة، منصبا على طول الطريق المرصوف بالحجارة في جانب التل المواجه للوادي، حيث نعيش. سويت ظهري المنحني وتثاءبت باتساع فمي في تراخ. وقف أخي، تثاءب باقتضاب، وابتسم لي.

تخلينا عما جمعناه، ورمينا بالعصي إلى أغوار عشب الصيف، ثم تكاتفنا في طريقنا للقرية. كنا ذهبنا إلى المحرقة للبحث عن عظام لا تزال تحتفظ بصورتها، حيث يمكن استخدامها كميداليات نضعها على صدورنا، لكن أطفال القرية كانوا قد جمعوها كلها، ولم نجد شيئا تقريبا. يبدو أنني كان عليّ أن أتشاجر مع أحد زملائي في المدرسة الابتدائية ليسلمني ما لديه. تذكرت أنني قبل يومين كنت أحدق من بين أهالي القرية الكبار، في صف أسود، بامرأة ميتة تم حرقها وقد استلقت هناك على ضوء اللهب ضمن طقس مليء بالحزن وبطنها العاري المنتفخ مشرع نحو السماء. أحسست بالخوف، قبضت على ذراع أخي النحيلة، وأسرعت خطوتي. كثيرا ما شممت بعدها رائحة الموت، تلك الرائحة التي تذكرني بالإفرازات الدبقة التي تنشرها بعض الخنافس حين نضغط عليها بأصابعنا بقوة.

أُجبرت قريتنا على حرق موتاها في العراء خلال فصل المطر الطويل، الذي سبق ذلك الصيف، عندما استمرت الأمطار متواصلة فكانت تحدث فيضانات يومية. وقد حطم السيل الجسر المعلق الذي يختصر الطريق إلى المدينة. فكان أن أُغلق القسم الابتدائي من مدرسة القرية، وانقطع البريد تماما. فكان على كبار القرية الذين يضطرون إلى الذهاب إلى المدينة أن يشقوا طريقهم عبر درب ضيق وخطر على سلسلة التلال، بينما كانت مسألة حمل الأموات إلى المحرقة أمرا مفروغا منه.

عند مدخل القرية، حيث يبدأ الطريق المرصوف بالحجارة، وقف «هارلب»حاملا كلبه بين ذراعيه. ضغطت بيدي على كتف أخي وركضت بين الظلال القاتمة لأشجار المشمش العجوز كي أرى الكلب بين ذراعي هارلب.

قال هارلب: «انظر هنا، يا أنت» وهز الجرو بين ذراعيه حتى همهم.

كانت الذراع التي مدها نحوي تغطيها عضات كُسيت بقشرة يابسة من دم الكلب وشعره. أما صدره ورقبته النحيلة فكانا يبرزان العضات كالبراعم، ثم كرر بفخر: «انظر!».

قلت، بينما تغرقني المفاجأة والإحساس بالخزي: «أخلفت وعدك لي بصيد كلب بري، فذهبت بمفردك، أليس كذلك؟». قال «هارلب» بسرعة: «ناديت عليك فلم تكن هناك، لذلك...».

قلت وأنا أداعب بأطراف أصابعي الجرو ذا المنخرين المنتفخين والعينين الوحشيتين كعيني ذئب: «مؤكد أنه عضك، ... وسألته هل زحفت إلى الوكر؟».

قال بصوت ملؤه الفخر: «لففت حزامي الجلدي حول رقبتي أولا، ولذلك لم تبلغ الكلاب حنجرتي».

وخلال اللون الأرجواني للشفق المحيط بجوانب التل والدرب المرصوف، رأيت «هارلب» بوضوح مسلحا بحزامه الجلدي من حول رقبته، بينما تغطيه عضات الكلاب البرية وهو يزحف خارج وكر من الأعشاب والشجيرات اليابسة، حاملا جروا في ذراعيه.

قال واثقا من نفسه: «ذلك حسن بما أنهم لم يبلغوا حنجرتي، بالإضافة إلى أنني انتظرت حتى غادر الصغار».

قال أخي الصغير بشكل حالم: «أوه».

تابع «هارلب» مبالغا في ثقته: «اعتاد الكلب عليّ الآن في الواقع، وهو لن يرجع إلى بريته بعد الآن».

بقيت أنا وأخي ملتزمين الصمت.

قال: «راقباني!» ثم وضع الكلب على الطريق مبعدا يديه عنه، «راقبا!».

وبدلا من النظر إلى تحت حيث الكلب، اتجه بصرنا إلى السماء التي تظلل الوادي الضيق، كانت تعبرها بسرعة رهيبة طائرة بحجم هائل. لبضع لحظات، اهتز كياننا بسبب الهدير الجبار الذي امتلأ به الهواء، فأخذنا نخفق وسط الضجيج كحشرات مجنحة وقعت في شرك من الزيت.

صرخ هارلب: «طائرة عدو، جاء العدو!».

حدقنا في السماء صارخين حتى بحت أصواتنا: «طائرة عدو...».

ولم يكن في السماء ما يمكنه أن ينقذ الغيوم من أن تومض بلون بني في وجه الشمس. حين ثبنا إلى رشدنا ثانية كان كلب «هارلب» يقفز مبتعدا، لأسفل الطريق المحصب، وهو ينبح. لاحظنا ذلك بصعوبة حين تخطى الكلب الغابة وتلاشى عن النظر تاركا «هارلب» بفم مفتوح وقد اتخذ جسده وضعية الملاحقة. عندها ضحكت أنا وأخي كأننا سكرنا، وعلى رغم إحساس «هارلب» بالخزي إلا أنه لم يستطع كبح ابتسامته.

تركنا «هارلب» يجلس القرفصاء متربصا مثل وحش ضخم، وعدنا إلى مخزن البيت، حيث كان والدي يجلس في الظلام يحضّر وجبة طعامنا.

صرخ أخي من خلف ظهر والدي «رأينا طائرة، طائرة عدو ضخمة». أنزلت بندقية والدي الثقيلة عن الحامل الخشبي ووضعتها على كتفي ممسكا بيد أخي ونحن نصعد الدرج ا لمظلم.

قلت: «اختفى الكلب، مسكين».

قال أخي: «والطائرة أيضا».

كنا نعيش في غرفة صغيرة نعتاد على تربية دود القز في الطابق الثاني من البيت المشترك بمنتصف القرية. لم نكن نملك قطعة أثاث واحدة باسمنا. كانت بندقية والدي تلمع بوميض كئيب، كان مقبضها الخشبي بلمعانه الزيتي قد تحول إلى حديد مثل حديد اسطوانة البندقية، يصيب اليد التي تحملها بالخدر الشديد. أعطت البندقية نوعا من الأهمية لبيتنا المتواضع. كانت البندقية، مع جلود ابن عرس(*) المجففة في رزم، المعلقة على

(*) ابن عرس: حيوان لاحم صغير يستوطن أوروبا وآسيا وشمال أفريقيا، بني اللون، وتختلف درجات لونه من أعلى وهو أبيض من أسفل، يُعرف في مصر بالعرسة ويبلغ طوله حوالي ٣٨سم، بما في ذلك الذيل.

الحامل الخشبي، والمصائد من كل نوع، هي كل ما نملكه. والدي يقتصد بطريقة ما ليعيلنا، بصيد الأرانب والطيور، والخنزير البري حين يثلج الشتاء، ويجفف كذلك جلود ابن عرس التي تقع في مصائده ليبيعها في المكتب المحلي بالبلدة.

بعد أن لمعنا البندقية بخرقة مزيّتة، حدّقت أنا وأخي في سماء الليل من فجوة الباب الخشبي، توقعنا سماع هدير طائرة. لكن تحليق طائرة فوق قريتنا كان شيئا غير مألوف. أعدنا البندقية إلى الحامل الخشبي، على الحائط، وألقينا بأنفسنا على السرير، التصقنا، ننتظر والدنا والجوع يقرصنا، كي يحمل لنا قدر الأرز مع الخضار.

في البلدة ما وراء الهضاب المموّجة، استمرت الحرب طويلا حتى تحولت إلى شيء ضخم ثقيل، أسطورة تنفث هواءها الفاسد فوق كل شيء. بالنسبة لنا، ومهما يكن، لم تعن الحرب أكثر من غياب الشباب عن القرية والإعلان المفاجئ عن ميت في المعركة، نتسلمه من ساعي البريد. حتى الطائرات المعادية، التي بدأت التحليق أخيرا فوق القرية، لم تكن سوى نوع من الطيور النادرة».

استيقظنا قبل الفجر بسبب قرقرة ثقيلة وصوت تحطم مرعب. رأيت والدي وقد جثا فوق سريره بعينين تملأهما الرغبة، مثل وحش رابض في ليل غابة ينتظر الانقضاض على فريسته، لكنه بدلا من ذلك انقلب على فراشه ثانية، ثم راح مباشرة في نوم عميق. انتظرت لوقت طويل وأنا أصيخ، لكن الهدير لم يعاود مرة أخرى. انتظرت بفارغ الصبر، أتنفس بهدوء ذلك الهواء الرطب المشبع برائحة العفونة وصغار الحيوانات، وكان ضوء القمر يتسلل

عبر سماء الليل أعلى البيت. مر وقت طويل حتى أطلق أخي الصغير فجأة تنهيدة ضعيفة، وكان يرقد إلى جانبي وجبهته تنز عرقا. كان ينتظر الأرض كي تهدر ثانية، لكن ترقبه طال. رقبته مدلاة هناك، رقيقة غضة كساق نبات، فضغطت براحة يدي على قفاه وهززته بلطف لأشعره بالأمان. بعدها، وبتخفيف حركة يدي اللطيفة، خلدت إلى النوم كذلك.

عند استيقاظي، كان ضوء الصباح الباهر يتماوج عبر شقوق الألواح الخشبية، شمس حارة فورا. لم يكن أبي ولا بندقيته هناك. هززت أخي لأوقظه، وخرجنا عراة حتي وسطنا للطريق أمام البيت. ضوء الصباح الباهر يضرب الحصى والسلالم الحجرية، يبهر أنظار الأطفال في الخارج، كانوا يقفون بكسل، يدحرجون كلابهم لتخليصها من البراغيث، يصرخون وهم يلاحقون بعضهم البعض، ولم يكن هناك كبار. ركضت مع أخي إلى الحداد تحت شجرة الكافور الضخمة، لكن لم نجد أي نار محماة تطلق لهيبها المتألق فوق الأرض الداكنة، لم يكن هناك صوت للكير أو لحداد يلقط الحديد وهو ساخن بذراعه الجافة المعروقة. لم نألف من قبل ألا نجد الحداد في دكانه صباحا. عدنا صامتين ونحن نشبك أذرعنا العارية على الدرب المرصوف بالحجارة. لم نرَ أي رجل كبير في القرية كلها. أما النسوة فكن يطفن في عمق أحد المنازل المعتمة. وهنا، يغرق الأطفال فحسب تحت أشعة الشمس.

لمحنا «هارلب» وهو يتمدد على السلم الحجري المؤدي إلى النبع حيث تأخذ القرية ماءها. جاء راكضا وهو يلوّح، يتبجح بكونه

مهما، واللعاب الأبيض يتناثر من فمه.

صرخ وهو يربت على كتفي: «سمعت الخبر؟».

قلت: «ماذا؟».

قال: «طائرة الأمس، تحطمت على الهضاب في الليل، ويبحثون عن الطيارين الأعداء الذين كانوا على متنها، وقد ذهب الكبار كلهم للقبض عليهم بالبنادق».

سأل أخي الصغير بصوت مشدود: «هل سيطلقون عليهم النار... على الجنود الأعداء؟»، ثم أضاف «لا أتوقع ذلك، مع كل هذا النقص في الذخيرة، من الأفضل الإمساك بهم أحياء».

قلت: «وما مصير الطائرة؟».

أجاب «هارلب»: «دخلت في الغابة وتحطمت إلى شظايا». قال بسرعة وعيناه تلمعان «ساعي البريد رآها، أنت تعرف المكان، أليس كذلك؟».

أعرفه، الآن فقط سيزهر ورد الأشجار، مثل سنابل العشب المريّشة. وبنهاية الصيف، يتشكل بيض الطير بانتظارنا لنجمعه مؤونة للحرب، عند الفجر وفي الشفق كانت الكريات البنية في بيتنا تتطاير فجأة وهي تحدث فرقعة حادة.

قال «هارلب» وهو يقلب شفتيه كاشفا عن لثة قرمزية: «حسنا، تعرفه، إذن؟».

قلت ضاغطا على شفتيّ: «طبعا، أعرفه. هل ستذهب؟». حدق فيّ «هارلب» بابتسامة ماكرة جعدت الجلد حول عينيه إلى ثنايا لا تُحصى.

قلت: «إن ذهبت سأذهب وأحضر قميصي الداخلي»، ثم أضفت مقطبا «اذهب وحدك، وسألحق بك عاجلا».

شاع السرور في وجه «هارلب» وقال بصوت حاول فيه جاهدا إخفاء ارتياحه: «لا، لن تذهب، ممنوع على الأطفال الذهاب إلى الهضاب، فقد يُصابون خطأ أثناء إطلاق النار على الطيار الأجنبي».

خفضت رأسي وحدقت في أصابع قدميّ القصيرة والمضغوطة على الحصى المحترق بشمس الصباح.

تدفقت خيبة الأمل في جسدي تدفق النسغ في الشجرة وهي تشيع الدم في جلدي، الذي سخن كأحشاء دجاجة ذُبحت للتو.

قال أخي متعجبا: «ما شكل الأعداء؟».

تركنا «هارلب» وعدنا بينما يدي تحضن كتف أخي. أجل، تساءلت، كيف يكون شكل الأعداء، وعلى أي وضعية يتخفون؟ ثم بدا فجأة أن الحقول والغابات جميعها حول القرية في الوادي تمتلئ بالأعداء الذين يختبئون وهم يحبسون أنفاسهم، كأن صوت تنفسهم الخفيض سيتضخم في أي لحظة إلى صخب مرعب. جلودهم تنز عرقا، ورائحة أنفاسهم الحريفة تنتشر ثقيلة حتما فوق الوادي برمته.

قال أخي الصغير حالما: «أتمنى ألا يكونوا ماتوا، أتمنى لو يعيدونهم أحياء».

غزا الحريق حناجرنا تحت وهج الشمس فوخز الجوع أمعاءنا. في جميع الاحتمالات القوية فإن والدنا لن يعود حتى المساء، لهذا كان علينا إعداد الطعام لأنفسنا. نزلنا البئر بالدلو المكسور خلف مخزن البيت وشربنا، ندعم أنفسنا بضغط أيدينا على الجدار الداخلي العفن كبطن اليرقة.

سحبنا الماء إلى حوض حديدي قليل الغور، أشعلنا النار ثم مددنا أيدينا للتبن الموجود خلف المخزن كي ننشل بضع حبات من البطاطس. حين غسلناها بالماء البارد صارت صلبة كالحصى في راحات أيدينا.

بعد عملنا القصير تناولنا وجبة بسيطة لكنها وافرة، وكان أخي يأكل بعيدا مثل حيوان سعيد وهو يقبض البطاطس بين يديه، يفكر مليا.

قال: «طيب، إذا كان الطيارون في أعالي شجر التنّوب، هل تعلم بأني رأيت ذات مرة سنجابا على أحد غصونها؟».

قلت: «إن الأزهار تغطي التنّوب، ولهذا فهي تُعد مكانا جيدا للاستخباء».

قال وهو يبتسم: «والسنجاب أيضا اختبأ حالما رآني».

فكرت مليا في تلك اللحظة بأولئك المسلحين الغرباء الذين اختفوا بين الأغصان العالية لشجر التنّوب، مع زهر كرؤوس العشب المزغب، ينعمون النظر تحتهم من خلال عناقيد الورق الأخضر الجميلة، حيث يقف أبي والآخرون. تلتصق أزهار التنّوب ببذلات الطيارين السميكة المحشوة فتجعلهم يبدون كالسناجب التي سمّنت نفسها لأجل سبات الشتاء.

قال أخي واثقا: «وحتى إذا اختبأوا في الأشجار، فإن الكلاب ستجدهم وتنبح».

انتظرت حتى بدأت شمس ذلك اليوم تنتقل من مكان لآخر في السماء، حتى عم وادينا غروب الشمس الحارة، ولكن الكبار لم يعودوا بعد.

كنت في سباق مع نفسي، فالغروب تلاشى، وكان يهب من الوادي نسيم بارد له تأثير ملطّف في الجلد المحروق حديثا، ثم بدأت تزحف الظلال الأولى للمساء إلى الزوايا، عادت الكلاب تنبح أخيرا مع عودة الكبار إلى القرية الغافية، قرية نصف مجنونة في حالة ترقب قلق. ركضت لملاقاتهم مع جمهرة الأطفال، فرأيت رجلا أسود ضخما يحيطه الكبار، فاجتاحت نفسي نوبة خوف مفاجئ جعلت رأسي يدور.

أحاط الكبار بصيدهم. انضغطت شفاههم بكآبة مثلما كان يحدث وهم يذهبون إلى صيد الخنزير في الشتاء، ساروا نحونا وظهورهم محنية، وحزانى تقريبا. لم يكن الصيد نفسه يلبس البذلة الرمادية الحريرية المهفهفة والحذاء المدبوغ الخفّاف، بل سترة وبنطالا أخضرين غامقين وحذاء أخرق ثقيلا. هلّ وهو يجر قدمه العرجاء، وظهر وجهه الأسود الكبير وامضا تحت نور الشفق الأخير، قيدوا ذراعيه بسلسلة حديد من مصيدة خنازير، تحدث صليلا عاليا وهي تتحرك، سرنا نحن الأطفال في جماعات صامتة ونحن نتبع موكب الكبار المحيطين بصيدهم. تقدم الموكب بطيئا إلى الخلاء أمام المدرسة التي تكفي حاجة القرية، عندها وقفوا صامتين. شققت طريقي أمام مجموعة الأطفال، ولكن رئيس القرية العجوز أقصانا بأعلى صوته. تراجعنا إلى دغل أشجار المشمش في زاوية الخلاء حيث استكنّا لمتابعة مؤتمر الكبار من الغبش الكثيف. جلست النسوة في مداخل البيوت بمواجهة الخلاء، وقد ثنين أذرعهن تحت ملابسهن البيضاء. إن رجالهن قد عادوا بصيد خطير من حملتهم. تحفزن في إنصات وقد فقدن

صبرهن إزاء صوت الرجال الخفيض. سدد هارلب ضربة قوية لأضلعي واقتادني بعيدا عن باقي الأطفال إلى ظل خفي تحت شجرة كافور.

قال بصوت منفعل: «زنجي فعلا، كنت أظن ذلك من البداية، زنجي حقيقي!».

قلت: «ماذا سيفعلون به. ربما يطلقون عليه النار؟».

صرخ «هارلب» بصوت لاهث ملؤه الدهشة: «يطلقون عليه النار؟ يقتلون زنجيا حقيقيا، حيا؟».

كنت أصرّ بانعدام ثقة: «ولكنه عدو».

غمغم بصوت أجش، وهو يمسكني من الياقة، ثم يرش وجهي بالبصاق: «عدو؟ إنه عدو؟ زنجي! عدو، صحيح!».

جاءه صوت أخي هائجا من بين الأطفال: «هيه، هيه، انظر!».

استدرت مع «هارلب» ونحن نحدق في الطيار الزنجي. كان يبول وكتفاه محنيتان، على مسافة قصيرة من الرجال الذين نظروا إليه محرجين. تلاشى جسمه الأسود تدريجيا في الغسق، فبان فقط البنطال والسترة الخضراء كأنهما من ثياب العمال. كان يبول ورأسه منحن، بعدها ارتفعت سحابة تنهدات من الأطفال المراقبين، حين هز فخذيه في تراخٍ وانتهى.

أحاط الكبار مرة أخرى بالطيار الزنجي، وبدأوا بطيئا يستعيدون خطواتهم. تبعناهم على بُعد في موكب صامت. توقف الموكب أمام باب المخزن الذي تُشحن منه البضائع. هنا، شق الأسود دربه، كمن يدخل عرين حيوان، إلى مدخل القبو الذي يُخزن فيه أحسن محصول الخريف من الكستناء كل عام، بعد قتل اليرقات من تحت

قشرتها بكربونات الديسالفيد. وبانفعال كأنه بداية موسم، هبط الكبار يتوسطهم الزنجي إلى باحة، ثم أغلقت الأيدي المرتعشة البيضاء للكبار منهم ذلك الباب المخفي الغليظ من الداخل.

وبآذاننا المنتصبة للاستماع راقبنا الضوء البرتقالي الذي شعّ وراء الشق الضيق لمنور القبو كاشفا أرضية المخزن. لم نستطع مقاومة رغبتنا في استراق النظر من المنور، فقد أتعبنا الانتظار الطويل. لا صوت لإطلاق النار حتى الآن. بدلا من ذلك، بان وجه رئيس القرية باهتا من الباب المخفي نصف المفتوح، وهو يجأر فينا، فاضطررنا للتخلي عن مراقبة المنور، حتى ولو عن بعد. لم يسبب ذلك أي تذمر، ركض الأطفال على طوال الدرب المحصب تثقل صدورهم كوابيس مخيفة، تمثلت في وقع أقدامهم كأنها تلاحقهم لحظة أن فروا راكضين.

تركنا «هارلب» أنا وأخي الصغير يختبئ تحت ظلال شجر المشمش قرب المخزن، وكان ما زال مصرا على رصد حركات الكبار مع صيدهم، بينما كنا ندور إلى مدخل المخزن الأمامي. صعدنا إلى الدور العلوي من بيتنا ونحن نستند على الدرابزين الرطب طوال السنة.

كنا نعيش إذن في البيت نفسه مع الطريدة، فكنا نصيخ منتبهين لكن لم يصل أي صوت من القبول إلى أعلى. على الرغم من ذلك، كان شيئا باهرا أن تجلس على سرير أعلى القبو الذي وضع الطيار الزنجي فيه.

راحت أسناني تصطك بمزيج من الإثارة والرعب والمتعة، بينما تدثر أخي بغطائه حتى رأسه، فقد كان يرتجف كأنه مصاب ببرد

شـديد. كنـــا بانتظـــار عـودة الأب، نبـتـســـم من الحـــظ الذي نزل علينا فجأة.

بدأنا نأكل ما تبقى من البطاطس التي بردت وتعفنت، فلم تفلح في تسكين جوعنا، كما لم تجدِ حركات فكينا في تهدئة اضطراب صدورنا. عند ذلك صعد الأب، جلس على البساط الذي يفرش الأرض العارية وهو محبط. راقبناه وهو يعلق البندقية على الرف، لكنه ظل صامتا يحدق في وعاء البطاطس التي كنا نأكلها. كان تعبا لدرجة الموت، هكذا فكرت بيني وبين نفسي. كنا صغارا ولا نستطيع فعل أي شيء حيال ذلك.

قال الأب: «هل نفد الأرز؟». حدق بي وهو يجعد ذقنه حتى برز الجزء غير الحليق ناتئا كالكيس.

أجبت بصوت خفيض: «آم».

و«الحنطة، أيضا؟» ثم تأوه تقريبا بصوت مريض.

قلت بتوتر متصاعد «لم تبق حبة».

سأل أخي خائفا: «ماذا حصل للطائرة؟».

«اشتعلت وكادت تسبب حريقا في الغابة».

سأل أخي متنهدا: «هل احترقت كلها؟».

«بقي الذيل فقط».

كرر منتشيا: «الذيل».

«وماذا حصل للآخرين؟ هل بقي لوحده من الطائرة؟».

«قُتل طياران آخران. ونزل هو بالمظلة».

كرر أخي مبتهجا أكثر: «المظلة...!».

عندها قمت بعمل حاسم، فتساءلت: «ماذا سيفعلون به؟».

«سنطعمه حتى نعرف ماذا يفعلون به في المدينة».

«نطعمه؟» سألت في اندهاش: «كالحيوان؟».

قال الأب بصوت ينم عن الخطر: «ليس أحسن من حيوان، فله رائحة مثل البقر».

قال أخي وهو يحدق في وجه أبي:«أود أن أذهب لأراه»، لكن أبي نزل الدرج عابسا. حضنت صدري مبتهجا. لدينا جندي زنجي كنت ألقي بثيابي عاليا وأصيح بصوت عالٍ لدينا جندي زنجي كالحيوان...

في الصباح التالي أيقظني والدي بصمت. كان الفجر قد بزغ للتو. زحف مزيج من نور الشمس الحاد مع ضباب أشهب عكر خلال كل شق من ألواح البيت. استيقظت، أزدرد فطوري ببطء. راح أبي يراقبني وبندقيته على كتفه وقد ثبت زوادته على صدره، بينما آكل بعينين صفراوين معكرتين نتيجة قلة النوم. فجأة، لاحظت أنه وضع بين ركبتيه لفة مشدودة من جلد ابن عرس وهي مغلفة بكيس قنب ممزق. أمسكت نفسي، إذن فهو نازل إلى المدينة! سيذهب إلى المكتب لتقديم التقرير عن الزنجي.

ارتفع في حلقي عدد من الأسئلة هددت بتأجيل وجبتي. لكن الطريقة التي تعمل بها عضلات ذقن والدي المغطى بالشعر الخشن أنبأتني أنه بمزاج سيئ، فقد كان عصبيا جدا نتيجة قلة النوم. بعد تناول وجبته أمس حمل بندقيته مع ذخيرة جديدة وخرج تحت حراسة الليل.

أخي نائم ورأسه مدفون تحت الغطاء الذي تفوح منه رائحة عشب عفن. أنهيت وجبتي، وتحركت بسرعة على أطراف أصابعي

كي لا أوقظه. لبست قميصي الداخلي الأخضر السميك مع حذاء الركض الخفيف الذي لا ألبسه عادة. أخذت لفة الجلد من ركبتي أبي، وضعتها على ظهري وأسرعت نازلا السلالم.

نزل الضباب رطبا على طوال الطريق بحيث لف القرية بأكملها. لم تصح الديكة بعد ولا نبحت الكلاب. رأيت أحد الكبار مستندا إلى جذع شجرة مشمش جنب المخزن مع بندقيته على يده. تبادل الأب بضع كلمات مع الحارس، كنت خلالها ألقي نظرة رعب على المكان المظلم مثل جرح، حيث منور القبو، توقعت أن تخرج يد الزنجي تهدد بإمساكي. أردت الخروج من القرية سريعا. بدأنا الرحلة على الطريق، نمشي صامتين كي لا ننزلق على الحصى، اخترقت الشمس طبقة الضباب السميكة فخلعت علينا الدفء بأشعتها.

سألت والدي بعد أن استرد عزمه: «هل تذهب إلى المدينة لتخبرهم عن الزنجي؟».

همهم والدي: «ماذا؟ آه، نعم».

«هل من الممكن أن يأتي معنا رجل شرطة من مركز المدينة؟».

همهم الأب: «لا أعلم ماذا سيحدث، ليس قبل أن يذهب التقرير إلى مكتب الولاية».

قلت: «لم لا نعتني به في القرية؟ فمن المحتمل أنه خطر جدا».

ظل لأب صامتا دون استجابة. شعرت فجأة بالخوف الذي أحسست به الليلة الماضية ينعش جسدي، حين أتوا بالطيار الزنجي إلى القرية. ماذا يفعل الآن في القبو؟ مؤكد أنه سيهرب من القبو ليذبح جميع الناس وكلاب الصيد ويطلق النار على

المنازل. كنت أرتعش من الخوف ولم أشأ التفكير في ذلك، فنزلت المنحدر لاهثا كي ألحق بأبي.

كان وقت الغداء في المدينة. شربنا من مضخة الساحة المفتوحة أمام المركز، ثم أسلمنا أنفسنا لانتظار طويل على مقعد قرب نافذة تعبر عليها أشعة الشمس الحارة. أنهى موظف عجوز غداءه أخيرا، بعدها تحدث مع أبي بصوت منخفض. اختفى الاثنان في مكتب المحافظ دون ضجة، بينما أخذت جلود ابن عرس إلى الجهة المقابلة حيث يوجد عدد من الموازين الصغيرة. وزنت الجلود وتم إدخالها في دفتر الحسابات باسم الأب. راقبت بحرص المرأة حسيرة النظر بنظارتها السميكة وهي تدون العدد في الدفتر التجاري.

انتهى العمل وعدت فارغا، انتظر أبي الذي لم يخرج بعد. حملت حذائي في يدي وبدأت قدماي العاريتان تخبطان على أرض الرواق، في بحث عن رفيقي الوحيد بالمدينة، ذلك الذي يأتي غالبا بالرسائل إلى القرية، له ساق اصطناعية، وجميع أهل القرية، الكبير منهم والصغير، يدعونه «الموظف»، حتى أثناء الفحص الطبي في المدرسة، فهو يعمل مساعدا للطبيب.

صرخ وهو ينهض عن كرسيه وراء الحاجز: «أهلا بالضفدع، أنت هنا؟». نقمت على سخريته ولكني صعدت إلى كرسي الموظف. لم يكن ينزعج حين يناديه الأطفال بـ «الموظف»، ولهذا لا ينبغي أن نشكو حين يدعونا بـ «الضفادع». سعدت أنى وجدته.

«إذن أمسكتم بزنجي، أليس هكذا يا ضفدع؟» وصلصل برجله الاصطناعية من تحت المكتب.

هممت وأنا أضع يدي على مكتب الموظف جنب غدائه المغطى بورق الجرائد.

قال: «عمل بطولي فعلا».

حدقت إلى شفتي الموظف المصفرتين. أحنيت رأسي في عظمة، على رغم أني كنت أريد أن أخبره عن الزنجي، لكني لم أجد الكلمات التي تصف ذلك الأسود الذي جلبوه لقريتنا عند الفجر.

سألتُ: «هل سيقتلون الزنجي؟».

رد: «ليس عندي فكرة» وهو يهز ذقنه باتجاه مكتب المحافظ، «أظن أنهم يقررون ذلك الآن».

قلت: «سيجلبونه للمدينة؟».

راغ من السؤال العصيب، قال: «تبدو سعيدا لأن المدرسة معطلة، آه من تلك المعلمة، إنها امرأة كسول لا تفعل شيئا سوى الشكوى، لكنها لا تأتي بأي حركة لتترك المكان، إن أطفال القرية قذرون تفوح منهم الروائح الكريهة...».

أحسست بالخجل من القشرة القذرة حول رقبتي، لكني هززت رأسي وضحكت بجرأة. برزت قدم الموظف الاصطناعية من تحت المكتب زائفة وملفوفة. كنت أحب رؤيته حين يأتي إلى القرية وهو يقفز عبر الدرب الجبلي على قدمه السليمة والعكاز، لكنه حين يجلس فإن قدمه تصبح بغيضة ومخادعة كأطفال القرية.

خرج والدي من مكتب المحافظ ثم دعاني بصوت خفيض. ربت الموظف على كتفي، فبادلته الود وخرجت من المكتب.

قال: «لا تدع السجين يهرب يا ضفدع».

سـألت والدي ونحن نمر فـي المدينة تحت وهـج الشـمس: «مـاذا قررتم أن تفعلوا به؟».

«رد ردا عنيفـا كأنها غلطتي: «أولئك الأوغاد، حاولوا التهرب مني طول الوقت». كان بعدها في مزاج سيئ، لذلك لجأت إلى الصمت ومشينا بين الأشجار القصيرة، التي تحد شارع المدينة بشكل بشع. حتى شجر المدينة كان عدائيا ومخادعا مثل أطفالها.

حين وصلنا إلى الجسر في الضاحية، جلس والدي على الدرابزين المنخفض وبصمت فتح لفة غدائه. حاولت إيقاف نفسي عن التساؤل. مددت إصبعا متسخة إلى اللفة التي في حجر أبي. أكلنا حبات الأرز من دون أن نتبادل كلمة. أخيرا تركنا الطريق على طول جسر الهضاب وسيقاننا متيبسة ووجوهنا تنز بالدهن والعرق، نزلنا عبر شجر السرو المخضر دائما إلى مدخل القرية.

غطى نور الصبح على الوادي، لكن حرارة الشمس لم تزل في أجسادنا، وامتننا للضباب الذي أخذ يتكاثف.

تركت أبي، رحل إلى بيت رئيس القرية ليقص عليه ما حدث، وصعدت أنا للطابق الثاني في المخزن. أخي ينام وهو جالس على السرير. فمددت يدي وهززته، خشيت على عظم كتفه الواهن من تحت يدي. كان جلده ينكمش تحت يدي الدافئة. امتلأت عيناه بالخوف والتعب حين فتحهما فجأة.

سألته:«كيف حاله؟».

رد أخي: «ينام في القبو».

سألته بلطف: «كنت خائفا، هكذا؟» أومأ بعينين جادتين.

سألته:«هل رآه «هارلب»؟».

قال بأسى: «لقد أبعدوا كل الأطفال الذين اقتربوا من القبو، هل سيأخذونه للمدينة؟».

«لا أعرف».

نزل أبي مع امرأة البقال على السلم وكانا يتكلمان بصوت مرتفع. تلح المرأة على أنها لا تقدر على النزول بالطعام إلى الزنجي في القبو. مستحيل، لأنها محض امرأة، فلماذا لا يرسل الأب بأحد أبنائه لذلك؟ لحظتها كنت أنحني لخلع حذائي، لكني توقفت حين راحت يد أخي الطرية تضغط بشدة على ظهري. أخذت أمضغ شفتي بانتظار أمر أبي. حالما سمعته يصرخ «هيه، انزل هنا» رميت بحذائي تحت السرير مسرعا بالنزول.

أبي يمسك البندقية من عقبها ويشدها إلى صدره، أشار إلى سلة الطعام التي تركتها امرأة البقال. أومأت ملتقطا إياها بقبضة ثابتة. غادرنا المخزن صامتين نمشي في الهواء البارد حيث الضباب.ما زال الحصى تحت أقدامنا يحمل بعضا من دفء اليوم، ولم يكن هناك أحد في حراسة المخزن. شاع ضوء باهت من المنور، وعندما رأيت ذلك أحسست بالتعب يجتاح جسمي كله كالسم. كنت - حتى الآن - منفعلا من أنني أول من رأى الزنجي وجها لوجه، مما جعل أسناني تصطك.

فتح والدي القفل الثقيل الذي كان يقطر ماء على الباب، حدق في الداخل، ثم بدأ يهبط حذرا وبندقيته في وضع الاستعداد. جلست القرفصاء منتظرا، بينما كان هواء الليل يلطم رقبتي ممتزجا بقطرات الضباب. قدماي القويتان السمراوان ترتعشان، فكانتا تخذلانني أمام عيون لا تحصى راقبتني من خلف ظهري.

دعاني أبي بصوت مخنوق: «هيه».

فنزلت درجات السلم القصيرة وأنا أشد السلة إلى ظهري.

على ضوء المصباح الكهربائي الضعيف، ميزت الزنجي رابضا هناك. أنعمت بصري بشكل لا يُقاوم في السلسلة التي رُبطت بها قدمه السوداء إلى عمود. ركبتاه مشدودتان إلى ذقنه، ومن هناك رفع بصره نحونا بعينين محتقنتين، بنظرة ثاقبة فيها تحد وإصرار. تدفق حينها كل ما في جسدي من دم إلى أذني ضاربا وجهي بأمواج قرمزية. حولت عيني أنظر إلى أبي الذي مال بظهره للحائط مع بندقيته مسددة إلى الطيار الزنجي. أشار لي بذقنه فتقدمت، وبغمضة عين تقريبا، وضعت سلة الطعام أمام الزنجي. وبينما أنسحب تلوت أحشائي فجأة بنوبة خوف، وكان علي أن أقاوم نوبة من الغثيان. حدق الطيار الزنجي، حدق أبي، وحدقت أنا في الطعام. نبح كلب عن بعد، ثم ساد هدوء صامت على ساحة القرية وراء المنور.

أحسست أن اهتمامي انصب فجأة على الطعام تحت أنظار الزنجي. كنت أراه بعينيه الجائعتين: بضع كرات كبيرة من الأرز، سمكا مجففا منزوع الدهن، تشكيلة خضار، حليب ماعز في زجاجة واسعة العنق. حدق في سلة الطعام برهة طويلة حتى بدأت معدتي تشكو. اعتقدت أنه سيعاف الغداء الفقير الذي قدمناه ويحتقرنا، ويرفض المساس بالطعام إطلاقا. داهمني إحساس بالخزي. وإذا ما داوم الزنجي في إبداء عدم رغبته أن ينظر إلى الوجبة فإن خزيي سيمتد إلى أبي. سيقود ذلك أبي إلى الجنون، وحالما يصل الأمر إلى كبار القرية سوف تتقد مشاعرهم

وتشحب وجوههم بالخزي. من صاحب الفكرة الغبية في تقديم الطعام إلى الزنجي؟

لكن فجأة، مد الزنجي يدا طويلة للغاية، التقط الزجاجة بأصابع سوداء غليظة بها شعر خشن على ظهرها. وانفرجت شفتا الزنجي السميكتان المطاطيتان عن أسنان لامعة كبيرة بصفين منتظمين كقطع في آلة، وراقبت الحليب وهو يندلق في فمه الواسع القرمزي المشع. قرقرت أحشاؤه كجيب هوائي في ماء ارتطم بمصرف. طفح الحليب على زاويتي شفتيه اللتين تورمتا تقريبا بإيلام كفاكهة ناضجة معلقة بجبل، انثال الحليب على رقبته العارية مبللا قميصه المفتوح، ثم نازلا إلى صدره وهو يشكل كرات مرتعشة كالزيت على جلد خشن يشع بالسواد. أدركت، للمرة الأولى، وقد جفت شفتاي من الانفعال، أن حليب الماعز حلو إلى أقصى درجة.

أعاد الزنجي الزجاجة إلى السلة بقعقعة عالية. عندها لم يكن هناك أي تردد في حركاته. كرات الأرز في راحتي يديه الكبيرتين بدت كحلوى دقيقة، وكان يطحن السمك المجفف بين أسنانه اللامعة إلى قطع صغيرة، حتى عظم الرأس وغيره. ملت بجسمي إلى الحائط جنب والدي، وأنا أراقب فكي الطيار الزنجي القويين بينما تعملان. كان مستغرقا في طعامه بحيث لم يولنا أي اهتمام. لذلك، بينما أقاوم لإخماد جوعي، تجمع عندي وقت كافٍ، على رغم أنه كان خانقا، لفحص هذا الصيد العظيم الذي أتى به أبي والكبار الآخرون.

كان شعره قصيرا مجعدا يغطي رأسه حسن التكوين، وكانت التجعدات ترتفع كشُعلات متسخة فوق آذان منتصبة كآذان

الذئب. بدا الجلد عند حلقه وصدره كأنه مغلف بوهج داكن مثل لون العنب. وكان يخلب لبي في كل مرة يلوي فيها رقبته المدهنة بثنياتها اللزجة. أما رائحة جسده العطنة فكانت تنز من حولي كغثيان يهل من جوفي إلى فمي. أثارت هذه الرائحة لدي ومضا من الانفعال يقارب الجنون.

كنت أراقب بعينين حارتين الطريقة الضارية التي هجم بها على طعامه، فمؤونة السلة النيئة تحولت إلى وليمة دسمة، غريبة، ناضجة. ولو كانت هناك أي بقايا طعام تركها، حين حملت السلة لبعيد، لكنت أمسكتها بأصابعي المرتجفة في متعة سرية وازدردتها. لكن الزنجي كان قد أتى على الفتات كله، وأخيرا مسح الصحن بإصبعه فنظف حتى ثريده.

لكزني أبي في جنبي، وبمزيج من الخزي والتهيج، كأني كنت منغمسا في أحلام يقظة داعرة. صعدت إلى الزنجي فأخذت السلة. أدرت ظهري له صاعدا السلم، بينما تحميني فوهة بندقية والدي، عندها فحسب سمعت من الزنجي سعالا ضعيفا وأجش. فترددت خطوتي وارتجف جسمي رعبا.

أعلى الدرج الثاني للمخزن، كانت تتأرجح من العمود ذهابا وإيابا مرآة متسخة محرفة بشكل كئيب، وحين صعدت ارتفع في العتمة وجه ولد ياباني، بوجنتين مرتجفتين، وهو يمضغ بشفتيه الشاحبتين صورة عادية لطفل. فتحت باب غرفتنا، وكانت أُغلقت على غير توقع، بذراعين تتدليان في تراخ، فاندفعت مشاعري نحو موقع الدموع.

أخي لا يزال يجلس غائصا في سريره، عيناه تومضان بحماسة وانفعال مع ذبول قليل بسبب من الخوف.

«أنت من أغلق الباب، هه؟» قلت وأنا أغير ملامحي إلى تعبير متعجرف لأحول الانتباه عن شفتي المرتجفتين.

أخفض أخي عينيه في خجل من جبنه: «ما شكل الزنجي؟».

قلت وأنا يغلفني تعب متعاظم «أوه، مجرد روائح مخيفة، ذلك كل ما في الأمر».

استيقظت متأخرا في الصباح التالي على دمدمة من الباحة التي جنب المخزن. لم يكن أخي ولا أبي في الغرفة. وكما توقعت، لم تكن بندقية والدي في مكانها. رحت أستمع إلى همهمة من الخارج وأنا أحدق في رف البندقية، أحسست بالغضب يجتاح صدري، خطفت قميصي وأنا أنزل الدرج.

كان الكبار في شكل مجموعة وحولهم الأطفال يحدقون بأوجه صغيرة متسخة يشلها الخوف.

رأيت أخي مع «هارلب» يجثمان على مسافة تفصلهما عن الباقي قرب منور القبو. فكرت بغضب «إنهم يقومون بزيارته» حين رأيت الموظف يتكئ برفق على عكازه وقد انبثق رأسه من القبو. اجتاح جسمي حس حاد كئيب من الذل مع موجة يأس. ما رابني فيما بعد، من ناحية ثانية، ليس الموكب المتوقع لأخذ الطيار الزنجي، بل والدي الذي ظهر وهو يتحدث مع رئيس القرية بصوت منخفض، والبندقية لا تزال على كتفه مغطاة في جرابها. تنهدت عميقا، وانصب العرق من تشعبات ذراعي. ناداني «هارلب» بصوت عالٍ «تعال وألق نظرة» بينما كنت أقف هناك، «انظر!».

استلقيت على بطني فوق الحصى الساخن لأحدق في المنور الضيق، تحت في الأعماق المظلمة. كان الطيار الزنجي يرتاح في

الأرض، جسمه منحنٍ رخو، كأنه حيوان أليف ضربوه حتى الإذعان. اتكأت بجسمي على يدي.

سألت «هارلب» بصوت يرتعد غيظا: «هل ضربوه وهو مقيد بالسلاسل، لذلك لم يستطع الحركة؟». رد «هارلب» بأسى: «ليسوا هم، فقد دخلوا وألقوا نظرة عليه فحسب. هذا كل ما فعلوه بالزنجي». تبخر غيظي وهززت رأسي في شك. حدق بي أخي، فقلت له: «لا بأس».

حاول أحد الأطفال أن يحشر نفسه معي ليتطلع في المنور، فلم يتوانَ «هارلب» عن رفسه فارتفع عويله، بينما منح «هارلب» نفسه حق النظر على الزنجي عبر المنور، وكان على قلق كي لا يغتصب أحدهم ذلك الحق منه.

تركت «هارلب» والآخرين وذهبت حيث كان الموظف يكلم الكبار المحيطين به. استمر في كلامه وهو يهين احترامي لنفسي والدفء الذي شعرت به تجاهه، لأنه تجاهلني كما تجاهل أطفال القرية المشققة شفاههم. هناك وقت يعفو فيه المرء عن القلق على كبريائه أو احترام الذات، ولهذا مددت رأسي من بين أرجل الكبار لأستمع ما يقوله الموظف ورئيس القرية.

في مكتب البلدة ومركز الشرطة، كما قال الموظف، يستحيل عليهم فعل شيء بخصوص تدبير أمر السجين الزنجي، سينقلون الأمر كله إلى مكتب الولاية، ولكن ينبغي أن يراعوا أمره حتى يصل الرد، وتقع مسؤولية ذلك على عاتق القرية. اعترض الرئيس وأوضح مرارا أن القرية لم تجهّز لإيواء السجناء مثل الزنجي، وسوف يكون صعبا بالنسبة للقرية تأمين حراسة كافية لزنجي

خطر كهذا على طول هذا الدرب الجبلي الطويل، إن فصل المطر الطويل والفيضانات جعلت كل شيء صعبا.

ولم يكن هناك مفر أمام الموظف سوى أن يصدر الأمر بنبرة حاسمة وطنانة لبيروقراطي مثله لا يهتم به الكبار. صار واضحا أنه سيتم الاحتفاظ بالزنجي في القرية حتى تقرر الولاية، فأحسست أن وجوه الكبار امتعضت من الاستياء والحرج. ركضت حيث يجلس أخي مع «هارلب» وهما يحتكران المنور. استغرقني شعور بالراحة والترقب لكن أصابتني عدوى من القلق الذي تسرب للكبار.

قال «هارلب» مبتهجا: «حسنا لن يقتلوه، فإن الزنجي ليس من الأعداء، تماما كما قلت!».

التصقت مع أخي و «هارلب» لنحدق عبر المنور نتنهد بارتياح لمشهد الزنجي وهو ممدد على الأرض، صدره يرتفع كلما يتنفس. دمدم الأطفال الآخرون مستاءين، فصعدوا حيث كنا نمدد أرجلنا على الأرض وقد جففت الشمس أطراف أقدامنا. نهض «هارلب» بسرعة وصرخ بهم فهربوا وهم يطلقون صيحات مروعة.

تعبنا أخيرا من مراقبة الزنجي حيث لا يفعل شيئا عدا التمدد في المكان نفسه، على رغم ذلك لم نتخل عن امتياز موقعنا. سمح «هارلب» للأطفال الآخرين أن يختلسوا نظرة على المنور لمدد قصيرة، لكن بإلزامهم دفع بعض من العناب أو المشمش أو التين. حدقوا مندهشين في انفعال، وأقفيتهم محمرّة، ثم وقفوا يفركون التراب عن أذقانهم بأيديهم. وبينما كنت أستند بظهري إلى جدار المخزن، راقبت الأطفال وهم يحمّصون أردافهم الصغيرة بأشعة

الشمس، كتجربة حياتية أولى، فشعرت بارتياح غريب وغمرتني موجة عارمة من البهجة والانفعال.

حاد أحد كلاب الصيد عن الكبار وانضم إلينا. اختطفه «هارلب» على ركبتيه العاريتين لينتقي منه البراغيث، وكان يسحقها بأظافره المصفرة وهو يصدر أوامره ممزوجة بلعنات شديدة إلى الأولاد.

وبعد صعود الكبار لتوديع الموظف في أعلى الدرب، كنا لا نزال في رياضتنا الغريبة. تجاهلنا أحيانا غيظ الأصوات التي خلف ظهرنا، نداوم التحديق طويلا في القبو وبعزم، والزنجي الطيار الممدد هناك دون أي حركة، كأن مجرد التحديق فيه لا يسبب له أذى.

في تلك الليلة نزلت القبو مرة أخرى مع أبي وبندقيته، وكنت أحمل قدرا ثقيلا من الأرز المطبوخ مع الخضار. حدق فينا الزنجي بعينين تكسوهما قشرة كثيفة من الصديد عند حوافهما، بعدها غرس أصابعه المشعرة في الطعام الساخن دون أي ضجة، بدا متحمسا للأكل. كنت أستطيع المراقبة أثناء انتظاري بينما والدي يتكئ على الحائط وهو ينظر ملولا، دون تصويب بندقيته نحو الزنجي، فبدأت أشعر أنه طيع وهادئ مثل حيوان لطيف، خاصة عند انقباض عضلاته وانبساطها فجأة. نظرت إلى هارلب وأخي اللذين يحدقان بأنفاس محبوسة، وعيون ضبابية قاتمة، فابتسمت لهما بمكر عاجل. بدأت أعتاد الزنجي، وزرع ذلك بذرة غرور قوي ومبهج عندي، وفي كل مرة تصدر ضجة معدنية عن حركات الزنجي بسبب القيد، ينعشني رعب جديد مندفع، يتدفق عابرا أوردتي حتى أحس بأن جلدي كله يتغطى ببثور.

ومن اليوم التالي، كان لي امتياز تقديم الطعام للزنجي، مرة صباحا وأخرى مساء. أما أبي فكان يألف وضع بندقيته على كتفه ويصوبها نحو الزنجي. في الصبح وما بين المساء والليل، كنت أظهر مع أبي جنب المخزن وأنا أحمل سلة الطعام، بينما ترتفع تنهدات الأطفال كالسحاب إلى السماء وهم ينتظرون شغوفين في الباحة. قطبت جبيني وأنا أعبر الباحة، دون تحديق طويل إلى الأطفال، بمظهر خبير فقد المتعة في عمله لكنه ما زال يولي اهتمامه بالأداء الفعلي. رغب أخي مع «هارلب» في السير معا متلاصقين على مقربة من مدخل القبو. وحين أنزل مع والدي يسرعان بالتحديق عبر المنور. وحتى لو أتعبني واجب حمل الطعام إلى الزنجي فسوف أستمر وحدي لأجل متعة التنهدات المتقدة بالحسد من جهة الأطفال كلهم، بمن فيهم «هارلب»، وأنا أدير ظهري لأسير.

أقنعت أبي بأن يأذن لهارلب في أن ينزل معي للقبو كل مساء كي يساعدني في الواجب الذي كان يثقلني وحدي. في القبو دلو صغير وضع جنب العمود لعمليات الإخراج. كنا نصعد أنا و «هارلب» الدرج حاملين الدلو في حرص، كل من جهة، بواسطة حبل سميك نمرره عبر قبضتيه، ثم نذهب إلى كومة سماد كي نتخلص من السائل ذي الرائحة الكريهة، الذي يصدر قرقرة حين نمشي. أبدى «هارلب» حماسة مفرطة للواجب، وقبل أن يدلقه في كومة السماد كان يحركه بعصا كي يستفهم عن حالة الهضم للزنجي، وخصوصا الإسهال، والذي تأكد أن سببه حبات الشعير في عصدة الأرز.

حين كنا نذهب مع أبي كي نأخذ الدلو نجد الزنجي يُنزل بنطاله مبعدا قدميه على الدلو وهو يتبرز مثل كلب أليف. في تلك الحالات كنا ننتظر فترة وراء الزنجي، و«هارلب» يغالب الرعب والدهشة، عيناه مشدوهتان، يقبض على يدي ونحن نسمع الضجة الصادرة عن السلسلة المعلقة بقدمي الزنجي على جانبي الدلو.

كان الزنجي يشغل حياتنا، نحن الأطفال، كل زاوية فيها، منتشرا حولنا كالوباء. للكبار أعمالهم، فهم محصنون تجاه أوبئة الأطفال، كما لن يقوموا بفعل شيء حتى تصل توجيهات مكتب البلدة.

حتى أبي، الذي اضطلع بمهمة حراسة الزنجي، بدأ يخرج للصيد- تاركا الزنجي في القبو وحده - لكي يلبي حاجيات الأطفال اليومية.

في النهار، أنا وأخي مع «هارلب» نصمت تماما في القبو حيث يقيم الزنجي، نفعل ذلك وصدرنا يخفق ببهجة مع حس دائم بخرق المألوف. اعتدنا على ذلك بسرعة وصرنا سعداء، كأن دوام مراقبة الزنجي بمنزلة واجب مقدس عُهد به إلينا بينما يبتعد الكبار في الهضاب والوادي. تنازل «هارلب» وأخي عن فتحة المنور للأطفال الذين استلقوا على بطونهم فوق تراب الأرض الساخن يتبارون في التحديق بمنظرنا، نحن الثلاثة، في حسد، ونحن نحيط بالزنجي. وأحيانا كان ينسى طفل نفسه ويحاول اللحاق بنا إلى القبو، لكنه في الأخير يتلقى لكمة من هارلب فيسقطه على الأرض بأنف دامٍ.

ومنذ هذه اللحظة، كنا نحمل دلو الزنجي لأعلى درجة في القبو فيتسلمه الأولاد - ونحن نتعطف عليهم بهذه المهمة، كي

يأخذوه إلى كومة السماد تحت وهج الشمش. خدود الأطفال المختارة تتوهج بهجة، ويحتفظون بالدلو مستويا طوال فترة حملهم له بحرص، حتى لا يريق أي نقطة من السائل الأصفر القذر وكأنه عزيز عليهم. كل صباح كان الأطفال جميعهم، بمن فيهم نحن، نرفع أبصارنا إلى مسير الدلو عبر الغابة، ونحن ندعو تقريبا ألا يأتي الموظف حاملا أمر ترحيل الزنجي.

انسلخ كاحل الزنجي المقيد من السلسلة، والتهب، فجف الدم على مشط قدمه كورقة عشب جافة. سببت تقرحات الجلد القرنفلية قلقا متزايدا عندنا. وحينما يفتح ساقيه على الدلو، كان يكشف عن أسنانه كطفل يكزّ مجهدا في محاولة منه لمقاومة الألم. بعد التشاور والبحث بين عيون الآخرين، قررنا أن ننزع السلسلة من كاحليه. بعدها لم يكن يفعل عدا الجلوس صامتا في القبو ويداه مشدودتان إلى ركبتيه، تحجب عينيه سوائل قد تكون دموعا أو صديدا، كأنه حيوان أسود بليد الفهم، لا يمكن أن يصيبنا منه أذى. وفي النهاية فهو مجرد زنجي.

أمسكت المفتاح وأخرجت عدة والدي، كان «هارلب» ينحني وهو يلامس ركبة الزنجي بكتفه، نزعنا السلسلة فورا، وبشيء كالعويل وقف الزنجي ليهز قدميه. رمى «هارلب» بالسلسلة ناحية الحائط وفر إلى أعلى الدرج وهو يذرف دموعا مرتعبة. تشبثت بأخي غير قادرين حتى على الوقوف، يصعقنا الخوف الذي انبعث فينا من الزنجي ثانية. لكنه لم ينقض علينا مثل باز: بدلا من ذلك جلس يشد ركبته بيديه، وتغيم عيناه بالدمع والصديد، وهو ينظر إلى السلسلة الملقاة جنب الحائط. عاد «هارلب» إلى القبو وقد انحنى

خجلا، فاستقبلته وأخي بابتسامتين لطيفتين، وما زال سلوك الزنجي مثل أي حيوان أليف.

في وقت متأخر من تلك الليلة جاء والدي ليتثبت من القفل الكبير على باب القبو، فرأى كاحلي الزنجي وقد تحررتا. خنقني الخوف، لكنه لم يعنفني كما هو متوقع. الزنجي لطيف كحيوان أليف، وقد تسربت هذه الفكرة إلى عقول أهل القرية كلهم، الصغار منهم والكبار.

في الصباح التالي ذهبت مع أخي و«هارلب» لنعطيه الإفطار، وجدنا الزنجي يتحسس السلسلة وقد وضعها في حضنه. وجدنا مشبك السلسلة قد تحطم ورماه «هارلب» باتجاه الحائط، وكان الزنجي يفحص الجزء المكسور بلمسة خبير واثق من كيفية إصلاح المصائد يهل على القرية كل ربيع. رفع جبهته اللامعة فجأة يحدق فيّ مومئا بما يريد. نظرت إلى «هارلب» غير قادر على كتم السرور الذي هدّأ توتر خدودنا. تكلم معنا الزنجي، مثل الحيوانات التي تكلمنا.

عدونا إلى رئيس القرية حاملين على أكتافنا صندوق العدة، وهو ملكية مشاع، أخذناه إلى القبو. وعلى رغم أنه كان يحوي أشياء مفيدة كسلاح، فلم نتردد في أن نعهد به إلى الزنجي. فكرة أن الزنجي الذي لدينا الآن كحيوان أليف، كان ذات يوم مقاتلا، هي فكرة لا تصدق، تتحدى كل خيال. نظر الزنجي أولا في صندوق العدة، ثم في عيوننا، راقبناه ونحن نرتجف من البهجة، وحين قال هارلب بصوت خفيض «يشبه الإنسان تماما!» لكزت أخي في ردفيه ضاحكا بمزيج من الاشمئزاز والفخر. انبعثت

من أعلى المنور، حيث الأطفال، تتهدات استغراب تشبه انبثاق الضباب.

أعدنا سلة الإفطار ثم تناولنا إفطارنا. حين عدنا إلى القبو كان الزنجي قد أخرج مفتاح الربط ومطرقة صغيرة من صندوق العدة ووضعهما على كيس نشره فوق الأرض. نظر إلينا حين جلسنا بالقرب منه. فجأة برزت أسنانه المصفرة سريعا، واكتشفنا - كالصدمة - أن بإمكان الزنجي أن يضحك. كان يشدنا إليه برباط عميق ومتين، هو تقريبا رباط «إنساني».

هبط المساء، وأُخِذَ «هارلب» إلى البيت وسط شتائم داعرة من امرأة الحداد، وكانت أردافنا قد أتعبها الاستناد إلى الأرض مباشرة، بينما الزنجي ما زال يحاول إطباق الجزء الذي انقلع عن المصيدة. اتسخت أصابعه بالشحم القديم المحمل بالتراب من السلسلة، وكان يحدث ضجة رنانة أثناء عمله.

راقبت الطريقة التي تستلم بها يداه قطع اللحم القرمزية الطرية من تحت ضغط نصل المصيدة، والوضع الذي ينجدل فيه وسخ رقبته المشحم ليشكل خطا أسود كلما يتحرك. أثار ذلك عندي غثيانا مقرفا واشمئزازا ارتبط إلى حد ما بالشهوة. كان الزنجي منكبا على عمله بينما يغني لنفسه وهو ينفخ خديه. اتكأ أخي على ركبتيّ، راقب حركات أصابعه بعينين مفعمتين بالإعجاب. طار حولنا سرب من الذباب في طنين مواظب، وتشابكت أصوات أجنحته مع الحرارة التي تحيط بآذاننا.

بصوت تنامت حدته، فظ وقاطع، ربط المصيدة بالحبل المصنوع من القش الخشن، ألقاها أخيرا على الأرض بحرص، ثم نظر إلينا

مبتسما، بعقل بليد وعينين براقتين. العرق يسيل حبيبات مرتعشة أسفل جبهته السوداء اللامعة. بادلته وأخي الابتسام. كنا لا نزال نحدق في عينيه اللطيفتين، تماما مثلما نفعل مع الماعز أو كلاب الصيد. الجو حار. ابتسم بعضنا إلى بعض، متشبعين بالحرارة، بدا ذلك كأنه متعة نتقاسمها معه وتربطنا معه.

في صباح تالٍ جاءوا بالموظف موحلا تماما وينزف من ذقنه؛ لقد سقط في الغابة أسفل منحدر خفيض وبقي من دون مساعدة حتى وجده رجال القرية، وهم في طريقهم للعمل في الهضاب، ملقى هناك فساعدوه على الوقوف ثانية. كانت الحلقة المعدنية التي تربط الجلد القاسي لقدمه الاصطناعية قد انثنت ولا يمكن أن تنطبق ثانية. حدق فيها الموظف بارتباك بينما يعالجه رئيس القرية، لم ينبس بشيء يدل على أن لديه تعليمات من البلدة. تفاقم غضب الكبار، وكنا نفكر مليا أن نتركه يجوع حتى الموت في أسفل المنحدر إن كان جاء ليصطحب الزنجي، لكنه جاء لتوضيح أنه لم يرد تعليمات من السُلطة بعد. استعدنا على الفور بهجتنا وحيويتنا ونوايانا الطيبة تجاه الموظف، أنزلنا رجله الاصطناعية مع صندوق العدة إلى القبو.

كان الزنجي ممددا على أرض القبو الباردة الدبقة ويغني بصوت عميق دفين أغنية مفعمة بالحيوية سحرتنا، أغنية يجثم فيها الحزن والنصر معا مستعدين للوثوب في أي لحظة. أريناه القدم الاصطناعية المكسورة. استوى في جلسته، حدق فيها لحظة ثم باشر العمل من دون ضجة. طارت صيحات بهجة من الأطفال وهم ينظرون. ضحكنا أنا وأخي و «هارلب» حتى لهثنا.

في المســاء، حين نزل الموظف إلى القــبــو، كــانت رجله الاصطناعية قد عادت سليمة كأنها جديدة. ثبتها في رجله المجدوعة ثم وقف. حينها انطلقت صيحات بهجة أخرى من الأطفال. وثب على الدرج وهو يخرج إلى الفضاء المفتوح كي يرى كيف تعمل قدمه. سحبنا الزنجي من يديه وجذبناه ليقف على قدميه، وبعيدا عن تردده الواهن، بدا الوقوف كأنه عادة قديمة. أخذناه معنا للخارج. تنفس بملء رئتيه الهواء المنعش في ذلك المساء الصيفي، فانتفخ ثقبا أنفه العريضان، حيث كان هذا أول هواء نقي تنفسه منذ أن صار سجينا، راقب خطوات الموظف التجريبية في حماسة. كل شيء على ما يرام. عاد الموظف راكضا، أخرج سيجارة كان يلفها من ورق أشجار الغابة، يصنعها بغير إتقان من تبغ يوخز عينيك بإيلام مذكرا إياك بنار الغابة. أشعلها ثم قدمها للزنجي الطويل. أخذ الزنجي نفسا واحدا منها، ثم انحنى وهو يسعل بشدة بينما يده تشد على حنجرته. بدا الموظف محرجا فأبدى ابتسامة هي أقرب إلى الحزن، لكننا نحن الأطفال انفجرنا من الضحك. اعتدل الزنجي وهو يكفكف دمعه، سحب من جزء البنطال الذي يغطي خلفيته العضلية «غليونا» أسود لامعا وقدمه للموظف. قبل الموظف الهدية، أومأ للزنجي علامة على الرضا، انثالت الشمس وهي تلقي ظلال المساء الأرجوانية. تجمعنا حولها ونحن نصرخ حتى تشققت حناجرنا ونضحك بجنون.

بالنهاية، كنا غالبا ندعو الزنجي للخروج كي يتمشى معنا على طول الدرب المحصب عبر القرية، ودون أن تصدر نأمة شكوى من الكبار، وحين يسيرون جنب الحظيرة التي يسكنها ثور رئيس

القرية، كانوا يتفادون النظر إلى الزنجي وهم يصادفونه يسير محاطا بالأطفال.

وحتى حين ينشغل الأطفال بالعمل في بيوتهم حيث لا يستطيعون زيارة الزنجي في قبوه، كان هو يصعد إلى باحة المخزن لينام تحت ظلال الأشجار نومة خفيفة، أو يسير مبطئا بكتفيه محنيتين على درب القرية. يلاحظه الكبار والصغار سواء، دون أي شعور بالدهشة. فصار تقريبا كأحد مكونات الحياة في القرية، مثل كلاب الصيد والأطفال والشجر.

أحيانا، كان يأتي الوالد حاملا على جنبه شركا بدائيا طويلا من ألواح خشبية مسمّرة، وفيه ابن عرس بجسمه الطويل الريان هائجا، لحظتها نقضي معظم الصباح على الأرض العارية نساعده في السلخ، ونحاول أن نأتي بالزنجي يرقبنا فيما نعمل. حين يأتي، نركع بأنفاس محبوسة على جنبي الوالد وهو يمسك بالسكين الملطخة بالدم من مقبضها المشحّم، آملين أن يكون موت ابن عرس الرشيق المتمرد مرضيا وسلخه بارعا. أثناء عملية خنقه كان يطلق رائحة نتنة مخيفة، كإيماءة أخيرة للحقد الذي ينتابه لحظة آلام احتضاره. يصدر صوتا واهٍ عند شقّه، خلال تشريحه برأس سكين أبي الوضاءة. تستلقي جثته أخيرا أمامنا مغطاة بجلد ذي بريق لؤلؤي، كشيء صغير داعر العري. فيما بعد، كنا نحمل أحشاءه لكومة السماد، غير عابئين، ننثرها بعيدا، ونعود نمسح أيدينا بأوراق الشجر. على التو علقنا جلد ابن عرس بمسمار إلى الجدار، فكانت الطبقة الدهنية والشرايين تلمع تحت الشمس. راح الزنجي يحدق في جروح الجلد وهو يزم شفتيه بصوت

ضعيف، بينما والدي يكشط الجلد بأطراف أصابعه كي يجف سريعا. أخيرا، رأى الفرو منتشرا على الجلد وقد جف حتى صار في قساوة الظفر، بعلامات الدم الملونة التي تطفح كأنها سكة حديد على خارطة، فأعجبه المنظر. وكان أبي يتوقف أحيانا أثناء مهمته في رش الماء على الجلد المسلوخ ليلقي نظرة ودودة على الجندي الزنجي. في هذه الأثناء كنا نرتبط أنا وأخي وأبي والزنجي سويا كأننا عائلة واحدة تتحلق حول مهارة والدي في سلخ جلد ابن عرس.

وكان يحب كذلك التحديق في دكان الحداد أحيانا، و «هارلب» يساعد الحداد في صناعة المعازق، بجسمه الأعلى عاريا يلمع في ضوء النار، اعتدنا اصطحاب الزنجي إلى هناك. وحين يلتقط الحداد قطعة الحديد المتوهجة بأصابعه الملوثة بالفحم ثم يدفعها إلى الماء، يصرخ الزنجي متعجبا، ويصفق الأولاد. صار الحداد فخورا بنفسه، بعدها تبنى هذا المفهوم بجدية لعرض براعته الخارقة.

حتى النساء لم تعد يخفن الزنجي، فكن يعطينه الطعام أحيانا بأيديهن.

وصل الصيف إلى ذروته، ولم تأت أي تعليمات من حكومة الولاية بعد. سرت إشاعات بأن مكاتب الولاية في المدينة قد دمرتها غارة جوية، لكن هذه الاشاعات لم تؤثر فينا. أضرمت حرارة الجو قريتنا أكثر من أي نار محرقة. وخلال جلوسنا في القبو الخانق الساكت، يوما بعد يوم، فاحت من الزنجي رائحة فظيعة، دهنية، طاغية، ذكرتنا برائحة ابن عرس نتن على سماد

القرية. كان ذلك مصدرا للمتعة يضحكنا حتى تنهمر منا الدموع، لكن بعد أن بدأ جلده يتعرق لم يعد بإمكاننا البقاء جانبه من نتن الرائحة.

في مساء حار، اقترح «هارلب» أن نأخذ الزنجي للنبع، مصدر الماء المشاع للقرية. كلنا أحس بالاشمئزاز من نفسه لعدم تفكيرنا في ذلك من قبل، فمسكناه من يديه المتسختين اللزجتين وسحبناه لأعلى الدرج. اجتمع الأطفال في الباحة وهم يصرخون، لكنا فررنا به على طول الطريق المتقد بحرارة الشمس، تعرينا كدجاج منتوف وانقضضنا على ملابس الزنجي، أخذناها لوسط النبع ونحن نرش الماء على بعضنا بعض في جلبة كبيرة مبتهجين بفكرتنا الأخيرة. بدا الزنجي العاري كبيرا حتى في الجزء الأعمق من النبع، فقد وصلت المياه بصعوبة فيه إلى خصره. كل مرة نلقي فيها الماء عليه يصرخ كدجاجة مخنوقة ثم يدفع رأسه تحت السطح، ويبقى هكذا حتى نجبره على الوقوف ثانية، فكان يصرخ وهو يرش الماء ثانية. بدا عريه وجسده الرطب عاكسا لمعة الشمس كأنه جسد حصان أسود، كامل وجميل. اجتمعنا حوله صارخين، نتصادم بأجسادنا العارية، وأخذ يطلق خوارا عنيفا، رششناه بالماء وضحكنا حتى سالت الدموع من مآقينا. كنا نراه كأنه حيوان أليف مدهش ونادر. بأي كلمات يمكننا التعبير عن الحب الذي شعرنا به تجاهه، أو عن تناغم ضوء الشمس المتألق على جلده المبلل في ذلك الأصيل الصيفي المشرق البعيد، الظلال على الحصى ورائحة الزنجي والأطفال، والأصوات التي تجأر سعيدة.

بدا لنا أن هذا الصيف للعضلات المتألقة العارية، هذا الصيف يشبه دفقة لون زيتي رششناه فغطانا بلون البهجة الأسود، ولسوف يستمر إلى الأبد، لن ينتهي أبدا.

مساء اليوم نفسه، الذي اغتسلنا فيه، طوقت الوادي عاصفة رعدية، و استمر هطول الأمطار طوال الليل.

الصباح التالي، بينما أنا وأخي مع هارلب نأخذ الطعام للزنجي، كنا نلتصق بجدار المخزن حتى نتفادى غزارة الأمطار. بعد الوجبة، جلس في القبو المظلم بيديه تطوقان ركبتيه وهو يغني بصوت خفيض. جلسنا نمد أصابعنا للخارج تحت رذاذ المطر الذي تناثر عبر المنور مختلطا بصوت الزنجي العالي وهو يغني أغاني هادرة وجليلة كالبحر.

وعندما انتهى من غنائه كان المطر قد توقف عبر المنور. شددنا على يده وأخذناه، وهو لا يزال يبتسم، إلى باحة القرية. انداح الضباب فجأة عن الوادي، وانتفخت الأشجار بقطرات المطر وقد تشربها الورق الكثيف، كأنها أفراخ طير، وعند هبوب نسيم لطيف كانت تهتز بشدة وهي تبعثر أوراقها الرطبة مع قطرات المطر فتشكل أقواسا قزحية خاطفة مع حشرات زيز الحصاد. جلسنا على الحصى في مدخل القبو نستروح أنفاس الشجر وسط حرارة اليوم المنعشة مع أصوات زيز الحصاد.

بعد الظهر، وكنا لا نزال في المكان نفسه، برز الموظف بمظلته تحت ذراعه من الطريق عبر الغابة، ذهب إلى بيت رئيس القرية. وقفنا نتكئ على ضلع شجرة المشمش القديمة ونحن ننتظر قدوم الموظف واثبا من عمق ظلال البيت كي نلوح له، وعلى رغم طول

انتظارنا لم يبد للعيان ثانية. بدلا من ذلك، رن جرس الإنذار من المبنى الذي يقع جنب بيت رئيس القرية يدعو الكبار للعودة من الوادي والغابات حيث يعملون، كذلك النسوة والأطفال للخروج من بيوتهم المخضلة بالمطر.

حين التفت إلى الزنجي، رأيت كيف غابت الابتسامة عن وجهه البني اللامع، فتقلص صدري بغثيان مفاجئ. تركناه أنا وأخي و «هارلب» وركضنا إلى مدخل بيت رئيس القرية. تجاهلنا الموظف الذي يقف صامتا في المدخل. رئيس القرية منهمك في تفكير عميق وهو يجلس على القسم المرتفع من الأرض برجليه متصالبتين. جاهدنا بنفاد صبر كي نكبح الآمال التي شعرنا بأنها مخيبة، وانتظرنا اجتماع الكبار. عادوا من الحقول والغابات تدريجيا، بثياب العمل، مستاءين. جاء أبي أيضا، مع طيور صغيرة كان يشدها إلى ماسورة بندقيته.

وما أن بدأ الاجتماع حتى خيب الموظف آمالنا وهو يشرح بلكنته المحلية أنه تقرر تسليم الطيار إلى سلطات الولاية. قال إنه من المفروض أن يأتي الجيش لأخذه، لكن الجيش يبدو أنه يعاني اضطرابات واضحة وخلافات داخلية، فعهدوا إلى أهالي القرية بتسليمه. الشيء الوحيد غير المقنع للكبار هو مهمة تسليم الزنجي، أما نحن الأطفال فقد غصنا في الذعر والكآبة. ماذا يبقى للقرية إن سلموا الزنجي؟ ليس عدا مصادفة صيف فارغة.

كان عليّ أن أنذر الزنجي، فشققت طريقي بصعوبة من بين أرجل الكبار عائدا إلى حيث يجلس الزنجي في الباحة أمام المخزن. وقفت أمامه لاهثا، فرفع عينيه اللتين فقدتا إشراقهما

وحيويتهما وهو ينظر نحوي. لم أخبره بشيء، رحت فقط أحدق فيه بمزيج من الحزن والإحباط. نظر إلي، ذراعاه حول ركبتيه، يبحث عن شيء في عينيّ، تكورت شفتاه كبطن سمكة حامل، كانتا تتدليان مفتوحتين برخاوة، وقد سال اللعاب أبيض لامعا من بين أسنانه. استدرت فرأيت الكبار يتقدمهم الموظف يدخلون من مدخل بيت رئيس القرية المعتم، متجهين إلى المخزن.

هززت الزنجي الجالس في كتفه ودعوته باللكنة المحلية. كنت محبطا: ماذا أفعل؟ ترك نفسه يهتز صامتا تحت يدي، بينما راح رأسه الضخم يدور من جهة لأخرى. خفضت رأسي ثم تركت كتفه.

وقف فجأة أمامي على قدميه مرتفعا كشجرة. أمسكني من أعلى ذراعي، نازلا سلم القبو. كنت مصعوقا، وللحظة راقبت بكسل حركات فخذيه القويتين وتقلصات اللحم في ردفيه وهو يدور برشاقة حول القبو. خفض الباب، أخذ المصيدة التي كانت معلقة هناك بعدما أصلحها، ثم قيد حلقة القفل في الجزء الداخلي من الباب الذي يدعم نتوء الحائط. بيدين مشبوكتين ورأس منحن نزل ثانية. حين نظرت إلى الزنجي بعينيه الخاليتين من التعبير، أدركت أنه ارتد إلى ذلك الحيوان الأسود المتوحش الذي يستعصي على الفهم، بشكله الجاد نفسه الذي كان عليه حين أتوا به في البدء كأسير. نظرت إلى شكله الضخم، ثم إلى المصيدة التي تثبت الباب المسحور، بعدها إلى قدميّ العاريتين. غمرني الخوف واجتاحت أحشائي الصدمة. وثبت بعيدا عن الزنجي ضاغطا ظهري إلى الحائط، لكنه ظل وسط القبو ورأسه

محني. عضضت شفتيّ بقوة لأهدئ ارتعاش أطرافي السفلية. جاء الكبار لأعلى الباب السري وبدأوا هز السلسلة المثبتة فيه. بهدوء في البداية، ثم بشكل مسعور كأن طائرا هوجم فجأة. لكن خشب البلوط السميك خذلهم بعد أن كان مبعث طمأنينة لهم، حينما استخدموه لحبس الطيار الزنجي، وها هو يحبسهم الآن كلهم في الخارج، كبار القرية وصغارها والشجر والوادي.

أطلت وجوه الكبار مترعة بالذعر وهي تحدق عبر المنور، تبدلت على الفور، وارتطمت الجباه، اتضح التغير في تصرفاتها بالخارج. كانوا يصرخون أولا ثم صمتوا الآن وماسورة بندقية مصوبة نحو المنور الآن. وثب الزنجي عليّ كحيوان رشيق وشدني بقوة إلى جسمه لحماية نفسه من البندقية. وبينما كنت أتلوى وأتأوه من الألم بين يديه أدركت الحقيقة المرعبة: إني أسير ورهينة. لقد تحول الزنجي إلى «عدو». صرخ المؤيدون لي من وراء الباب السري فسرى في جسدي إحباط من مشاعر الخيانة، غيظ وذل وحزن وأسى، كل ذلك في لذعة النار. والأسوأ أن الخوف تضخم داخلي كدوامة هددت بخنقي.

كان الزنجي يقبض عليّ بين يديه القاسيتين، وأنا أحترق من الغيظ والبكاء في الوقت نفسه. أنا رهينة الزنجي.

انسحبت فوهة البندقية، وارتفع لغط الكبار، عندها انعقد مؤتمر طويل على جانب المنور الآخر. ما زال الزنجي يقبض عليّ بقوة حيث تخدرت ذراعي من الألم، ثم تراجع إلى زاوية لا يخشى من تصيده فيها، جلس صامتا. انسحبت تجاهه كما كنت أفعل ونحن أصدقاء، حتى انحنيت على ركبتيّ أمامه، تخنقني

رائحةجسمه الكريهة جدا. تكلم الكبار لفترة طويلة. ومن حين لآخر كان أبي يحدق عبر المنور، وكل مرة ينكس فيها رأسه ليرى ابنه الرهينة، أبكي.

جاء المساء أولا إلى القبو ثم للباحة خلف المنور. حين هبط الليل، رحل الكبار عن البيت وهم يوجهون لي كلمات التشجيع. بعد وقت طويل سمعت خطوات والدي تسير على الجانب الآخر من المنور، فجأة اختفى الأثر الأخير للإنسانية من على وجه الأرض وغطى الظلام القبو.

حرر الزنجي يديّ وهو يحدق فيّ. استحوذ عليه شعور الصداقة اليومية الذي كان تفجر بيننا حتى ذلك الصباح. ارتعشت غاضبا ثم حولت بصري عنه وأنا جالس برأس خفيض وأكتاف محنية بعناد، فأدار لي رأسه وهو يجثم برأسه بين ذراعيه. كنت وحيدا كابن عرس وقد وقع في مصيدة، أعزل مستوحشا ويائسا تماما. وكان الزنجي دون حراك في الظلام.

وقفت، اتجهت إلى السلم كي ألمس المصيدة، ولكنها باردة قاسية فارتدت أصابعي، وبراعم الأمل غير الناضجة التي آوتها مثل الأرنب الوحشي الصغير الذي ضعف ومات وهو يحدق في الشرك الحديدي الذي يشبك قدمه الدامية، غير قادر على تصديق ما وصل إليه والمصيدة التي أمسكت به. تعذبت من غبائي الذي وثق بالزنجي واتخذه صديقا. ومع ذلك هل يساور الشك أحدا في ذلك الأسود الضخم ذي الرائحة الكريهة الدائم الابتسام؟

أُصبت بالبرد واصطكت أسناني، بدأ بطني يؤلمني، فقرفصت أضغط جزأه السفلي، وصدمتني حقيقة محرجة أنني في طريقي

للإسهال. الهستيريا القاسية التي ألمت بجسمي كله هي السبب المساعد لحدوثه.

ولم أستطع فعل شيء حتى الآن حيال الزنجي، قاومته، أطبقت أسناني، بلل جبهتي عرق من المغص الموجع، قاومته بعناء، حتى تغلب مسعاي في مقاومته على خوفي منه.

في النهاية، استسلمت. اتجهت إلى الدلو - الذي كان يجعلنا مبتهجين حين يفتح ساقيه فوقه - فأنزلت بنطالي. بالنسبة لي، بدا ردفاي البيضاوان ضعيفين بدرجة كبيرة ودون حماية: يا للعار، يبدو كل شيء داخلي سوف يُصبغ بالأسود، من حنجرتي نزولا إلى المريء ثم يمينا إلى غشاء المعدة. أخيرا، وقفت ثانية ثم عدت إلى الزاوية. ضغطت جبيني المتسخ إلى الحائط - كنت أشعر بدفء التراب عليه - وبكيت بصوت خفيض على شكل متواصل. الليل طويل. نبحت الكلاب البرية في الغابات وأصبح الهواء باردا، استحوذ عليّ تعب بالغ فتمددت على الأرض ونمت. حين استيقظت، كانت كف الزنجي تضغط ذراعي نصف المخدرة كما كان سابقا. دخل نسيم المنور في دوامة من الضباب مختلطا بأصوات الكبار. أمكنني سماع رجل الموظف الاصطناعية تصلصل وهي تسير. تناهى إليّ، بعد وقت قصير، من بين أصوات أخرى، صوت مطرقة ثقيلة تضرب الباب السحري. لاقى ذلك الصوت الثقيل صداه في بطني وكان يتضور جوعا.

صرخ الزنجي فجأة، قبض على كتفي، ثم جرني وسط القبو، ثم حملني على مرأى من الكبار خلف المنور. لم تكن عندي أي فكرة عن سبب تصرفه هذا. وكانت هناك عيون لا تحصى، عبر

المنور، تحدق فيَّ وأنا أتدلى هناك كالأرنب! لسوف أعض لساني خجلا إن كانت عينا أخي الصغير السوداوان المخضلتان بالدمع بينها. لكن تلك العيون التي حدقت بي من فتحة المنور كانت عيون الكبار جميعا.

بات صوت المطرقة أعنف، صرخ الزنجي، ثم أطبق بيديه من الخلف على حنجرتي، فنشبت أظافره بإيلام في جلدي الناعم، كما سبب ضغطه على رقبتي صعوبة في التنفس. كنت أخبط يديّ وقدميّ، أطوح رأسي للوراء وأطلق أنينا. كان يخجلني كثيرا أن الكبار شاهدوني، على هذه الحالة في المنور. تلويت في محاولة للهرب من جسم الزنجي الذي يشدني إليه بقوة، فركلت قصبتي ساقيه بعقبي. لكن يديه المشعرتين كانتا قاسيتين وهو لم يتوان، كما أن صرخاته كانت أعلى من أنيني. انسحبت وجوه الكبار إلى الجزء الآخر من المنور. ظننت أنهم انصاعوا لتهديد الزنجي وركضوا لإيقاف الآخرين عن تحطيم الباب. توقف صراخ الزنجي وخفف ضغطته التي كانت مثل صخرة على حنجرتي. استرجعت إحساسي بالحب والقرب من الكبار.

لكن الضرب على الباب السحري صار عنيفا أكثر. أطلت وجوههم أكثر من مرة وهي تحدّق عبر المنور، ومع صرختي شدد الزنجي قبضته ثانية حول عنقي. أثناء العراك، انفرجت شفتاي في وجهي الذي انعقف إلى الوراء وأصدرتا صرخة واهية، كصرخة الحيوانات الصغيرة وهي تحاول الفرار. على رغم أن الكبار تخلوا عني، إلا أنهم استمروا يحطمون الباب السحري، تاركين يد الزنجي تخنقني. حين انتهى التحطيم، وجدوني

بأطراف جامدة، مخنوقا حتى الموت كابن عرس الذي عند والدي، كنت مغتاظا فتأوهت يائسا بصوت عالٍ وارتد رأسي للوراء في خجل، ثم راحت دموعي تنهمر وأنا أتلوى وأستمع لصوت المطرقة.

دوّى صوت اندفاع عجلات لا تحصى في أذني وطنٌّ، وسال الدم من أنفي. تحطم الباب وهرولت الأقدام الموحلة، أقدام مشعرة حتى أصابعها، وامتلأ القبو بالكبار نصف المسوسين بالغضب. شدني الزنجي بقوة إلى جسمه وهو يصرخ بأعلى صوته مندفعا تجاه الحائط. شعرت بظهري وردفيّ تنضغط في جسمه المتعرق اللزج، كأن تيارا حارقا مثل نوبة غضب مرّ من بيننا. امتلأت خزيا وعداء صريحين، كأني قطة كُشفت للجماع: عداء تجاه الكبار المحتشدين دونما حركة أعلى السلم وهم يراقبون عاري، وعداء تجاه الزنجي الذي تضغط يداه الغليظتان على حنجرتي، غارسا أظافره في جلدي الواهن يلطخني بالدم، وعداء مشوّشا نزقا تجاه كل شيء وأي شيء. نبح الزنجي كالكلب. صعق الصوت طبلة أذني وأنا هناك في القبو بمنتصف الصيف أغوص في خدر عميق، تدريجيا، كان أقرب شيء إلى اللذة، بينما لهاث الزنجي يغطي مؤخرة عنقي.

من بين جمع الكبار تقدم والدي وفي يده بلطة. عيناه تتوهجان بالغضب الضاري كعيني كلب. انغرست أصابع الزنجي أعمق في عنقي فأخذت بالعويل. اندفع والدي يلوح بالبلطة فوق رأسه. أغمضت عينيّ. قبض الزنجي على معصمي الأيسر رافعا يدي عاليا ليحمي رأسه. ارتفعت ولولة من الحشد المتجمع في القبو، بعدها سمعت صوت تحطم يدي اليسرى وجمجمة الزنجي.

فانتشر الدم غزيرا على ذراعي الزنجي اللامع الدهني تحت ذقني. اندفع الكبار نحونا، وفي لحظة واحدة شعرت بتراخي ذراع الزنجي مع ألم حارق يجتاح جسمي كله.

تدريجيا، بدأ يلتئم ما بداخل البنطال اللزج وجفوني الحارة والحنجرة الملتهبة واليد الحارقة، وذلك منحني هيئة أخرى. لم أستطع حتى الآن أن أخترق الغشاء اللزج لأفلت من البنطال وكحَمَلٍ خدِيجٍ، لفوني بحرام التصق برطوبة أصابعي. لم أتمكن حتى من تحريك جسدي. كان الوقت ليلا والكبار يتكلمون حولي. بعدها جاء الصباح، فصار باستطاعتي أن أحس بالنور خلف جفوني. وهناك أحيانا كف ثقيلة تضغط على جبيني فأتأوه وأنا أحاول هز نفسي بحريتي، لكن رأسي لا يتحرك.

في صباح آخر نجحت للمرة الأولى أن أفتح عينيّ، وكنت على سريري في البيت. «هارلب» مع أخي الصغير يقفان أمام الباب يراقبانني. فتحت عينيّ على اتساعهما وحركت شفتيّ. نزل أخي مع «هارلب» الدرج مندفعين وهما يصرخان، فصعد أبي مع امرأة البقال. كنت جائعا، لكن حين وضع أبي كوب حليب الماعز المغذي قرب شفتيّ أحسست بالغثيان. صرخت وأنا أضغط شفتيّ فسقطت قطرات الحليب على حنجرتي وعنقي. لم أكن أطيق الكبار، بمن فيهم أبي. الكبار الذين تقدموا نحوي بأسنان ظاهرة وهم يلوحون بالفؤوس، كانوا غريبين ومثيرين للغثيان بشكل لا أفهمه. ظللت أصرخ حتى غادر أبي والآخرون الغرفة.

مر الوقت، شعرت بيد أخي الناعمة تلمس جسمي بخفة، ودون أن أتكلم أو أفتح عينيّ استمتعت إليه يكلمني بصوت خفيض كيف

أنه ساعد في جمع أغصان مقطوعة لحرق جثة الزنجي، وأن الموظف جلب أمرا بإلغاء الحرق، فحمل الكبار الجثة إلى نفق مهجور في الوادي كي لا تتعفن، بعد أن وضعوا حاجزا يصد الكلاب الشاردة.

ظن أبي أني مت، فاستمر يكرر ذلك بصوت ملؤه الرعب والرهبة. وليومين كاملين لم أفعل شيئا سوى الاستلقاء هناك من دون أي طعام، لذلك ظن أني مت.

انجرفت بين يدي أخي في نوم أغراني بقوة، كان يجرني إليه كالموت نفسه.

استيقظت في المساء ثانية، لاحظت أن قماشة تحيط يدي المكسورة. ظللت ساكنا فترة، وأنا أحدق في اليد المتورمة بشكل لا يمكن تمييزه من صدري. لم يكن هناك أحد في الغرفة. دبت رائحة تثير الاشمئزاز عبر النافذة، علمت ما تعنيه، لكن لم ينهمر أي حزن بي.

باتت الغرفة معتمة والهواء باردا. رفعت نفسي عن السرير، وبعد تردد طويل ثبتّ نهايات القماش المحيط بيدي المكسورة وعقدته فوق رأسي. اتكأت عندئذ على النافذة لأنظر إلى القرية تحتي. فوق الدرب المرصوف بالحصى، فوق المباني، فوق الوادي الذي يستريحون فيه، يمتلئ الهواء بنتن جثة الزنجي الثقيل، بصرخة الجثة الصامتة وهي تنتفخ أكثر، تغلف أجسادنا وتنتشر فوق رؤوسنا كالكابوس. الوقت غسق، والسماء بلون رمادي خفيف مرعب يتداخل مع البرتقالي، فيمتد لأسفل وهو يقبض على الوادي كله.

ارتفعت من وراء المخزن ضجة أطفال عنيفة. رائحة جثة الزنجي عطنة. أخذت أدوس على رجليّ بحرص وكانتا تهتزان بعد المرض الطويل. نزلت الدرج المعتم ومشيت على الدرب المهجور تجاه صراخ الأطفال. كانوا محتشدين على منحدر أخضر يمتد إلى جدول أسفل الوادي وكلابهم حولهم نابحة. بينما كان الكبار في الوادي أسفل المنحدر المغطى بالشجر لا يزالون مشغولين ببناء الحاجز الذي سيصد الكلاب عن الوصول إلى النفق الذي دفنوا فيه جثة الزنجي. ارتقى الصوت الوئيد للأوتاد وهي تُدّق في الأرض. الكبار يعملون بصمت، بينما الأولاد حولهم يتدافعون في صرخات سعيدة.

اتكأت على جذع شجرة عطرة عجوز أراقب لعب الأطفال. يستخدمون ذيل طائرة الزنجي كزلاجة يتزلقون عليها إلى منحدر العشب. يجلسون مفتوحي الساقين على الحواف الحادة ثم ينزلقون كحيوانات صغيرة فوق العشب. وحين تقترب الزلاجة من خطر الاصطدام مع إحدى الصخور السوداء البارزة من العشب هنا وهناك، يثبت الولد قدمه العارية على العشب فيغير وجهة السير. يا له من ذيل مبهج رائع! كان الأطفال في إشراق بالغ وقد صارت الزلاجة جزءا منهم فينسحبون للأعلى ثانية، أما العشب الذي سحقه أحدهم أثناء هبوطه فقد بدأ النمو ثانية بطيئا ليحجب آثار الدهس العميقة. يتزلجون نحو الأسفل ويصيحون بينما الكلاب تنبح في أثرهم، ثم يرجعون ثانية نحو الأعلى على وهم يجرون الزلاجة خلفهم. تعذر عليهم أن يكبحوا البهجة التي كانت تمور رشيقة حول أجسادهم.

انسحب «هارلب» من بين الأطفال راكضا نحوي وهو يمضغ رزمة من العشب بين أسنانه، اتكأ على جذع شجرة البلوط التي أخذت شكل قدم غزال ثم حدق في وجهي. أدرت وجهي بعيدا وأنا أتظاهر بالنظر إلى الزلاجة، حدق «هارلب» بثبات في الذراع المعلقة إلى رقبتي وشهق بصوت عالٍ: «نتنة هي اليد التي انكسرت، نتنة بشكل مرعب، أليس هكذا!».

حولت عيني إلى عيني هارلب، كانتا تتألقان بوميض المعركة، اتخذ وضعية المحارب، ساقاه متباعدتان يستعد للانقضاض عليّ. لكني تجاهلت الأمر، وبدلا من أن أطير إلى حنجرته قلت بصوت مبحوح خافت «ليست مني تلك الرائحة، هي رائحة الزنجي».

حدق «هارلب» بي مشدوها. عضضت على شفتي ثم حولت عيني إلى أسفل حيث أوراق العشب الدقيقة التي تطوف على كاحليه. هز كتفيه بلا مبالاة مزدريا، بصق بقوة ثم انصرف، كان يصرخ وهو يعود إلى رفاق التزلج.

لم أعد صغيرا... تملكني تفكير كالوحي. المعارك الدموية مع «هارلب»، صيد الطيور في الليالي المقمرة، التزلج، مطاردة الجراء الهائجة، كل هذه كانت لأطفال، وكل المعاني التي تربط المرء بالعالم بعيدة عني الآن تماما.

على الأرض، حيث ما زال دفء النار، جلست منهكا أرتجف من الرعشة. وحين كت أريح جسمي، كان الكبار الصامتون في عملهم يختفون وراء أعشاب الصيف الخضراء، ويشب الأطفال نحو السماء كالحيوانات «هيه! أهو أنت ثانية يا ضفدع؟».

ضغطت يد جافة ساخنة على رأسي من الخلف، لكني لم أستجب بأي حركة للوقوف أو الاستدارة. ظللت متجها بوجهي ناحية الأطفال اللاعبين على الزلاجة، فقط زاوية عيني على رجل الموظف الاصطناعية، التي انغرست في ركبتي العارية. ظهور الموظف جعل حلقي يجف.

قال: «ألا تستطيع التزلج، يا ضفدع؟ ظننت للوهلة الأولى أنها فكرتك».

صمتّ معاندا. جلس الموظف وهو يقعقع برجله الاصطناعية، ثم أخرج من جيبه الغليون الذي أهداه إياه الزنجي وملأه بتبغه الخاص. حينها ارتفعت منه رائحة قوية هيجت غشاء منخري الناعم. لفتني والموظف رائحة كحريق في غابة بشجر مختلف له الضباب الأزرق الباهت نفسه.

قال: «الحرب شيء رهيب، حين تصل إلى حد أن تكسر أصابع طفل صغير...».

أخذت نفسا عميقا ثم صمتّ. الحرب هائلة، ذات صراع دام، ينبغي أن تدوم، الحرب تشبه طوفانا يجرف بعيدا حشود السفن ومروج الحقول التي في الأراضي النائية، لكن ما كان ينبغي للحرب أن تصل قريتنا أبدا وهي مع ذلك أتت، حطمت أصابعي ويدي حتى العظام وقد جعلت أبي بارعا في الفأس وغارقا في دم الحرب.

قال الموظف بوقار كأنه يتكلم مع أحد الكبار: «تبدو النهاية دانية، حين تحتك بالجيش في البلدة لا تحصل على شيء وسط كل هذه الفوضى، لذلك لا تعرف ماذا عليك أن تفعله».

استمر صدى المطرقة يدق من أسفل الوادي. قال الموظف وهو يركز أذنيه ناحية الصوت: «كانوا قساة بفعلتهم هذه، صحيح؟ إن الدك والبقية لا يعرفون ماذا يفعلون، وذلك سبب إضاعتهم الوقت بطرق الأوتاد.

كنا نصغي صامتين لصوت الطرق الثقيل القادم عبر ضحك الأطفال وصرخاتهم وهي تخمد. بعد فترة بدأ الموظف يخلع رجله الاصطناعية بأصابع خبيرة، حدقت فيه، فصرخ على الأطفال: «هيه، اجلبوا لي الزلاجة».

تحرك الأطفال في ضجة وهم يجرون معهم الزلاجة.

وثب الموظف على قدم واحدة، شق طريقه وسط الأطفال المحيطين بالزلاجة، بينما رفعت الرجل الاصطناعية وأنا أنزل المنحدر المعشب ضاما إياها على صدري. كانت ثقيلة للغاية، كما أن حملها بيد واحدة صعب ومحبط.

بدأ أول الندى يبلل العشب ثم قدميّ، وكانتا تحتكان بالعشب فيلتصق بهما. انتظرت هناك في المنحدر وأنا أحمل الرجل الاصطناعية بذراعي. هبط الليل الآن. فقط أصوات الأطفال كانت تهز غشاوة الهواء المبهمة الداكنة.

هناك انفجار مدوٍ من الصراخ والضحك وهسهسة العشب الناعمة، لكن الزلاجة لم تعد باتجاهي، كانت تشق طريقها عبر الهواء اللزج. لكأني سمعت صوتا مكتوما باهتا، فلبثت دون حراك أحدق في هواء الغسق. صمت قصير، بعدها رأيت ذيل الطائرة ينزلق نحوي وهو يتلوى هنا وهناك. رميت بالقدم الاصطناعية بعيدا عني ثم أسرعت أصعد الحقل الرطب.

بان الموظف مستلقيا جنب مجموعة من الصخر المرطب بالندى، وسط العشب المحيط، يحدق في السماء، ذراعاه مفرودتان برخاوة جنبيه. انحنيت عليه فرأيت الدم يسيل عكرا من المنخرين والأذنين بوجهه المبتسم. صعدت همهمات الأطفال فوق الحقل المعتم فصارت أعلى من النسيم الذي هب من الوادي.

تخليت عن جثة الموظف حتى لا يحيطني الأطفال، وقفت وسط العشب. وبسرعة، كنت أتآلف مع الموت المفاجئ ومع أوجه الموت، حزين الآن، مبتسم، كالكبار في البلدة الذين يتآلفون مع الموت.

تصورت أنهم سيحرقون الموظف بالخشب الذي جمعوه لحرق الزنجي...

وبعينين ملؤهما الدموع، رحت أنظر عاليا في ذلك الامتداد الأبيض الضيق بالسماء حيث الشفق ما زال يتردد، بعدها نزلت أبحث في الحقل عن أخي.

ساكوراجيما

هارو أوميزاكي

المؤلف في سطور

هارو أوميزاكي Haruo Umezaki

● ولد في كيوشو عام ١٩١٥.

● تخرج في جامعة طوكيو وتخصص في الأدب الياباني.

● نشط ككاتب بعد الحرب العالمية الثانية ونشر قصته «ساكوراجيما» عام ١٩٤٦.

وكتب روايات عدة منها «نهاية الشمس»، «موسم التزوير»، «الساعة الرملية».

● فاز بجائزة شينغو عن عمله الأخير ١٩٥٤، وكذلك بجائزة ناوكي في العام نفسه عن روايته «حياة الكوخ».

● آخر رواياته كانت «السراب»؛ ومات بعدها في عام ١٩٦٥.

في بداية يوليو، كنت في «بونوتسو» حيث يباشر المبعوثون إلى «تانغ تشاينا» أعمالهم كالسابق. كنت أحد موظفي فك الشفرة. اعتدت هبوط التل والذهاب للصيد يوميا أو السير مع عاملة مكتب بريد «بونوتسو» التي تقطع الطريق صباحا ومساء. قد يظن أي مراقب من الخارج أني أعيش حياة سهلة. رسائلي قليلة، واحدة أو اثنتان كل يوم. في بعض الأيام لا رسائل البتة. وعبر هذا النوع من الحياة، صرت في الحقيقة أدرك شيئا غير مرئي يضيق حلقته ليطوقني تدريجيا، أحس أني على الحافة، وأمل من تسلية نفسي يوما بعد يوم. حامت قاذفات القنابل فوق الممر ذات مرة. بإمكانك أن ترى أجنحتها وهي تومض بشؤم كنصل سكين تحت نور شمس صيفية.

ذات صباح، وصلت رسالة، أخرجت كتيب الشفرة البحرية لأفك رموزها: «أرسلنا الموظف «موركامي» إلى «ساكوراجيما» ليقدم تقريرا فوريا للمكتب المحلي في تانياما» ولحسن حظي وصل البحار تاغامي مساء.

وفي تلك الليلة، فقدت توازني من كثرة الشراب الممزوج بالماء وصرت أترنح كالأعمى على غير هدى في الطريق، فتدحرجت حوالى ست أقدام لأسفل الطريق. جرح جفناي وسال كثير من دمي. استلقيت على ظهري في حجرتي وأنا أنظر مرتعبا إلى القمر الشاحب. لم أستطع التفكير بوضوح في حالتي هذه، فوجدت نفسي ألهث محموما وراء أوهام موحشة. في الصباح التالي تلقيت علاجا أوليا لجفني في عنبر المرضى، بعدها انطلقت في طريقي. كان علي أن أذهب

سيرا إلى قاعدة «ماكوراسكي»، وبسبب أنني لن أرى «بونوتسو» مرة أخرى في حياتي بدت عندي واضحة وجديدة بشكل مخيف. استدرت مرة أخرى لأحدق فيها «لماذا تبدو نابضة بالحياة هكذا؟». كنت أتساءل وأنا أحس مرارة مضنية داخلي من الأفكار والمشاعر التي عشتها في هذه القاعدة. أليس هذا الانطباع هو الشيء الوحيد الحقيقي، على رغم أن تلك مسألة مشاعر وجدانية حول رحيل شوه بصيرتي...

رحت بالقطارمن «ماكوراسكي» إلى مدينة صغيرة سأستقل منها الباص. لكن، هناك باصا وحيدا وقد رحل لتوه.

كان لا يزال بإمكاني طلب سيارة، لكنني تخاذلت لأني كسلان، فذهبت إلى فندق وسط البلدة لأتناول وجبة طعام. وبينما أقف على الشرفة أحدق في ألوان سماء الليل، جاء ضابط الأسطول الذي كان يعبر الطريق وكلمني. أخبرته عن سفري ثم رافقته إلى غرفته وتناولنا فاصولياء محمصة ثم تحدثنا قليلا.

اسمه «تاني»، ملازم في قيادة وحدة المراقبة على جبل «بونوتسو»، قصير وبدين، عيناه كبيرتان، في الثالثة أو الرابعة والعشرين من عمره، قال إنه كان بمكتب ضابط البحرية المقيم أثناء قصف هاكاتا قبل بضعة أيام، ووصف ما حدث: إنها هاكاتا حيث ولدت، فشعرت بالحزن لدى تفكيري في أصدقائي ومعارفي الذين يعيشون هناك.

قال «تاني»: « هل تريد أن تموت ميتة جميلة، إن ذلك لا شيء عدا حالة وجدانية... ألا توافقني؟»، وكان يتفرس في وجهي وهو يمص قشر الفاصولياء.

هبط الظلام فقررت البقاء الليلة. اقترح «تاني» أن نمرح قليلا، فغادرنا الفندق صوب حانة خلف المحطة. أرشدتنا صاحبة الفندق إلى بناء متهدم وحيد في شارع مظلم يحيطه سور ولا يبدو أنه حانة. قاطرة حديدية تتحرك على طول أسفل التل أمام البيت بطيئة وهي تقذف ألسنة حمراء من مدخنتها، فيهطل وابل من الشرر على سكة الحديد. بدت طبقة غيوم كأنها معلقة من السماء معدومة الأنجم. تبين وجود فتاة وحيدة في النزل، ولا يوجد «ساكي»(*)، لكني كنت أحضرت بعضا منه وفقا لاقتراح تاني. إن احتمال النوم في مكان كهذا أمر كئيب وتمنيت ألا أفوز، لكني فزت. تناول تاني كوبا من الشاي ونهض باسما وهو يقول: «إلى اللقاء»، بعدها سمعت صوت حذائه من سيره على بلاط المدخل إلى البوابة. دخلت الفتاة للغرفة فورا.

كانت من دون أذنها اليمنى.

أدركت أنها المرة الأخيرة في حياتي التي سأنال فيها امرأة، فحالما أصل «ساكوراجيما» تمتنع الإجازات. العمل الذي ينتظرني يتعين فيه استغلال أي وقت إضافي للنوم. جلست قرب النافذة أرقب الفتاة دون أن أنبس بكلمة. قامت بتحضير شاي طازج في محاولة لإخفاء نصف وجهها عني. انتابتني فجأة فورة عنيفة من عواطف هي أقرب إلى الغضب.

أغراني أن أجرحها بكلمات قاسية من مثل: «أظن من الملائم أن تكوني بلا أذن خاصة حين تنامين على جنبك». وهذا لأني أحسست كمن يقتلع شعره يائسا، ليس لأني أردت إهانة الفتاة. لو

(*) ساكي: مشروب كحولي يصنع من الأرز المخمَّر

أبديت ما أريد فسترتد كل كلمة فيها إليّ كسكين حادة تطعن صدري. ألم أحس أني تأذيت من الداخل على رغم أنني لم أفعلها؟ في الحقيقة، أردت إهانة نفسي. أليس هذا النوع من الإهانات هو أنسب هدية فراق لذاتي الآن بما أنه مقدر عليّ أن أذهب لحتفي في مكان غريب دون أن أعرف دفء حب لامرأة، فلست أملك غير إضاعة شبابي كليّلا... خلال جلوسي أمام النافذة، كنت أرقب بثبات جانب الفتاة الجذاب.

«أنت تخيفني»

استدارت الفتاة جانبا لتفادي نظراتي. بدا أنها ترتعد قليلا. ظهر الجزء الأيمن من وجهها بالضوء الكهربي الشاحب. خدها يمتد مباشرة إلى حافة شعرها. ومكان أذنها ناعم كجزء من غرسة قطفوا ثمارها.

«ماذا فعلت بجفنك؟».

«سقطت من تل».

«إن ذلك بغيض، أليس هكذا؟».

وقفت لأخلع معطفي. مر وقت، كانت تلك الفترة الوجيزة كافية لتجعلني أدرك مدى انحطاط قوتي الجسدية، ولم يكن ذلك سارا، ذهني شارد بعيدا، يفكر في أشياء أخرى. جئت هذه المدينة بقطار صغير وسأرحل غدا صباحا بالباص. لم أكن في المدينة سابقا ولن أعود إليها ثانية. إلى أي مدى تعبّر ليلتي في هذا النُزل المتهدم عن نهاية هذه الفترة من شبابي. استلقيت أتحدث مع الفتاة وأنا أتسمع مكتئبا لضجة قطارات الشحن وهي تعبر تحت النافذة.

سألتني ورأسها مدفون في صدري: «سنذهب إلى «ساكوراجيما»، أليس كذلك؟ مكان لطيف، تنمو فيه الثمار طول العام. حين تصل هناك ستلاقي الأجاص والطماطم، قد يكون الوقت متأخرا على ورد «البشملة».

«لكني موجود في الأسطول، وهناك كثير من الفاكهة، لكن هذا لا يعني أننا نستطيع أن نأكل كلما نحب».

«لا أظن ذلك... يا للعيب! عيب حقيقي!».

نظرت الفتاة إلى أعلى ثم انفجرت ضاحكة. لكنها توقفت فورا وهي تنظر إلى وجهي بأسى.

«ستموت هناك على ما أظن؟».

«نعم، سأموت، وما في ذلك؟».

نظرت إلى وجهي فترة، فجأة، كأنها تكلم شخصا غير محدد، انفجرت:

«متى سيتم الغزو؟».

«قريبا على ما أعتقد، قريبا جدا».

«ستكون في القتال، أليس كذلك؟ وستُقتل في المعركة؟»

لم أرد.

«ستموت، هه؟ تعال أخبرني ! ما نوع الميتة التي تريد؟».

كنت أستمع إلى صوت الرياح التي بدت كأنها تعربد في صدري. كان وجه الفتاة الغريب الكئيب قريبا من صدري. إلى أن يحين الوقت، لن أتمكن من معرفة كيف أموت. بدا الموت حينئذ دانيا بشكل غريب. لم أستطع أن أكبح الخوف من هاجس الشر، لكني أرجعت بصري على الفتاة متظاهرا باللامبالاة.

«كفّي عن توجيه أسئلة بغيضة!».

لوجهها منظر الورق الباهت، عدا عينيها اللتين جعلتاني أحس بالاضطراب وهي تنظر لي بثبات.

ينضغط الجانب الأيمن من وجهها على الوسادة، فيبدو صغيرا بحجم ثمرة اليوسفي تقريبا.

«ليدع كلانا الحديث في هذه الأشياء غير السارة».

«لكنني تعسة، تعسة».

انفطرت عينا الفتاة بالدموع. أغلقت عيني، وفجأة طغى جيشان مؤلم من الحنان. شعرت كأني سأطحن أسناني حينما استلقيت ألاطف الفتاة بيدي.

في اليوم التالي، والمطر رذاذ، وصلت إلى «تانياما».

داخل المخبأ رطب والهواء ملوث. أما غرفة الشفرة فهي في آخر المخبأ. دخلت الغرفة حاملا معطفي الثقيل المشبع بالماء، أنحني لأتفادى ارتطام رأسي...

الجو حار، حتى أنني مسحت نظارتي مرات والغشاوة تعلوها.

«أريدك أن ترحل فورا إلى «ساكوراجيما»، حيث لا يوجد هناك ضابط صف للشفرة».

«لا بد يا سيدي أن أحدا هناك».

(نعم، لكنه يُعالج من الإسهال في مشفى «كيري شيما»).

كان الضابط المسؤول يكلمني عن الشفرة.

«سأرحل فورا يا سيدي».

خارج غرفة الشفرة رأيت بعض ضباط الصف والمتطوعين الذين أعرفهم بالنظر فقط، فتبادلنا التحية.

أخبروني بتعرضهم للمطر الغزير، وأنه قبل يومين أو ثلاثة هوى مدخل المخبأ المؤدي إلى غرف المعيشة.

الأرض هنا رملية وطرية. رائحة المخبأ عفنة بسبب الرطوبة، لذا يبدو الرجال شاحبين.

هناك ستة متطوعين عليهم الذهاب من ثكنة «ساسيبو» إلى «ساكوراجيما». جاؤوا خطأ إلى تانياما، فأخبروني أن أصطحبهم معي. هكذا انتظمنا نحن السبعة في مدخل المخبأ، تقدمنا ضابط الخدمة في الرذاذ عابرا الطريق القذر إلى الموقف المحلي. اكتشفت أن الرجال الستة احتياطيون وقد أرسلوهم لأعمال صيانة قوارب طوربيد المهاجمين الانتحاريين.

«هل في «ساكوراجيما» قوارب هجوم انتحارية؟».

«لا أدري سيدي».

أجاب أكبر الستة وهو بحار درجة أولى، عمره فوق الأربعين، بدا بائسا في زيه الرسمي غير اللائق، وحقيبة أوراقه صغيرة للغاية. لكونهم فقدوا كل شيء في معركة الثكنة البحرية «ساسيبو»، كما قال، فقد تم تزويدهم بنزر قليل من الملابس. حين رأى أن حقيبتي ثقيلة، ظل يعرض أن نتبادل حمل الحقائب. إنه يبدو من النوع المستقيم، لكني وجدت إصراره الساذج على الالتحاق بالخدمة مضجرا.

قلت باقتضاب «سأحمل حقيبتي» ومشينا باقي الطريق صامتين. وصلنا موقف الترام فاستقللنا واحدا صغيرا. بدا أننا لم نقطع أي مسافة قبل النزول بسبب القصف. انتظمنا نسير على طريق مرصوف هذه المرة.

مدينة «كاغوشيما» نصف مدمرة. لا شيء يحتفظ بشكله، فقط هياكل حجرية إسمنتية. عدا ذلك مشهد واحد تفرشه الأنقاض والخراب. هنا وهناك، تطلق الخراطيم أعمدة بيضاء من المياه، كما أن أعمدة الهاتف والكابلات ملقاة في الأرض على طول الطريق. وكان المطر يهطل كدوامة رماد. في آخر الأنقاض هناك البحر. عبر المياه قمة من كتلة هائلة تشرف على جزيرة «ساكوراجيما» وهي تلتف بسحابة من المطر البني. فكرت أن نذهب أسفل الجزيرة. سرنا جميعا دون أن ننبس بكلمة، حقيبة أوراقي تثقل كاهلي. ونحن ننتظر القارب على رصيف الميناء، أشرقت الشمس. تشقق الغيم فسمح لزرقة السماء بالظهور. بدا أن الذين ينتظرون القارب أغبياء فهم لا يتكلمون كثيرا. تأكل الفتيات في مكتب التذاكر بطاطا مدخنة أثارت شهيتي بشكل غريب، فتجنبت النظر إليهن وجلست على حقيبتي أرقب الحشد الخالي من التعبير. فكرت في الفتاة التي عرفتها الليلة الماضية. أمسكت بي أحاسيس تلك الليلة في إلحاح عجيب. مشاعر أقرب إلى الحنان خلقت تأثيرا معاكسا في نفسي. جلبت حسا بالاشمئزاز خاصة مع أوجه الحشد المتبلد على الرصيف «متبلدون كأحصنة».

فرقعت لساني بصوت عال، أقنعت جماعتي الفتيات بمشاركة البطاطا، فتناولوها خطفا في محاولة ألا أراهم. مر الوقت ملولا. جاء القارب في ميعاده يطلق موجة من الزبد المبقَّع. ذهبنا فانطلق القارب عبر مياه متسخة.

وصلنا الشاطئ المقابل فأنزلوا الجسر المتحرك على الشاطئ

الرملي، فعبر الناس واحدا واحدا ثم قفزوا. تلك هي «ساكوراجيما». وحدتي في مكان يُدعى «هاكاماغوتشي» على بعد ميلين ونصف سيرا من طريق الشاطئ. نظرت إلى السماء فوجدت ضوء المساء مخططا بالقرمزي. بدأت أحس بالراحة والإشراق حتى أنني قلت كلمة بديعة وسرت بفريقي مشية منتظمة. امتدت الأشجار على طول الطريق بورق أخضر لامع مع هطول المطر. نزلنا في قرية وأكلنا أجاصا كثيرا. الأجاص صغير وصلب بلون بني فاتح. بعدها لاحظت الثمر البني للأجاص البري منتشرا بكل مكان عبر لفيف من الشجر.

«هل هو الأجاص الذي تكلمت عنه الفتاة البارحة؟» كنت أتساءل وأنا أنشب أسناني فيها ثم أبصق القشرة. لم تكن ريانة أو حلوة.

غربت الشمس وخمدت أصوات الزيزان في الجبل، وصلنا إلى وحدتنا أول المساء. هناك صف من سبعة أو ثمانية كهوف ضخمة بالهضبة موّهت في غير إتقان بأشياء كالأعضاء الميتة. براميل زيت كثيرة وأشياء أخرى ملقاة عند مدخل المخبأ. هرولة من رجال داخلين وخارجين، أكبر سنا. باستطاعتي أن أسمع صوت الأمواج على الشاطئ.

ذهبت لأرى الضابط المناوب، سلمته أمر تحرك فرقتي من سبعة رجال وخلّفت الستة الآخرين. جاء متطوع من غرفة الإشارة فأخذني إلى مساكن الموظفين قرب رأس التل. نظرت إلى السماء ونحن نصعد الطريق الجبلي المعتم الشاق، إلا أن أغصانا مضفرة أعاقتني عن رؤية النجوم.

«هل تبعد كثيرا؟».

«تقريبا وصلنا يا سيدي».

خرجنا إلى ممر عريض نوعا ما خفَّت به كثافة الأغصان من فوقنا. في أحد الجوانب كان الجرف بمشهد البحر المعتم. هبّ نسيم عليل على عيني. تستلقي كتلة «كاغوشيما» السوداء عبر البحر وهي تتوهج بألسنة من نار حمراء. بدا لي لون النار غريبا وغير أرضي في وضعي المرهق. فاقتربت ببطء وفتور.

«هناك نيران كهذه كل ليلة يا سيدي».

أثرت فيّ كلمات الرجل بشكل غريب. نزلنا للممر الضيق. المدخل أصغر من مداخل الكهوف أسفل التل، والتمويه من الخيزران والشجر، بينما عدد كبير من الكابلات ملقى فوق الصخور. دخلت، وكان المخبأ على شكل حرف «يو».

آخر المخبأ يوجد مكتب الإرسال، ممتلئا بالمولدات وأجهزة الإرسال. قابلت عدة أشخاص هناك بمن فيهم ضابط صف الإشارة، وقدمت التقرير.

رتبوا الممر إلى مكتب الإشارة ليُستخدم مسكنا مع صنوف من الأسرّة والطاولات. وعند الطاولة جلس ضابط الصف ومعه زجاجة، كان يشرب «الساكي» وحده. بدا أن عظمه كبير لكن دون لحم يُذكر عليه، وله ذلك الوجه الشاحب لعمال الإشارة. ثبت عينيه المحمرتين من فوق خديه النحيلين عليّ. إحدى يديه تستريح على سيف كالذي يتقلده ضباط الجيش.

(ضابط الصف «مور كامي»).

حييته.

«دعني أخبرك، المناوبة هنا قاسية. لا أسمح لأي أحد مهما كانت الظروف أن يستهتر بالمناوبة لكونه مجرد ضابط صف. لا

أعلم أي شيء عن القواعد الأخرى. لكن هذا المكان يُعد هو الخط الأمامي، كل يوم تُحلق فوقنا القاذفات. سنموت كلنا هنا على أي حال، وحتى ذلك الحين عليك ألا تفعل ما يُعرضك لكلام الناس أو سخريتهم». وكان صوته أجشّ كعجوز.

«حسنا، سيدي».

(بالنسبة لي، فأنا المقدّم «كيرا»).

لحظة، قال هذه الجملة كأنه يقذف الكلمات في وجهي، غيّر نظرته المثبتة عليّ فجأة، لم ينظر لي بعدها. ثبت نظرته على الفراغ، باديا بوضوح كأنه نسي وجودي، ثم رفع كأس «الساكي» بأصابعه الطويلة إلى شفتيه. حييته وأخذني أحد الرجال إلى سرير المبيت المخصص لي. خلعت بذلتي الرطبة، ومن أسفل الهضبة جاء صوت البوق ضعيفا يؤذن بالمراقبة. الأسرّة من طابقين، ثُبت على السرير العلوي بطاقة خشبية مكتوب عليها بخط رديء (ضابط الصف «مور كامي»). صعدت وتمددت على البطانية. هناك العديد من الكابلات والأسلاك فوق رأسي تومض بشكل باهت. هناك على السقف ما يشبه الرذاذ الناعم من الرمل، فاستلقيت بعينين مغلقتين.

هاتان العينان! ما هذه النظرة الخارقة التي لا توجد إلا في أعين المجندين؟ خلفها وميض جنوني. ليست لشخص عادي، بل لواحد ذي طبع سخيف. أليست هي الرعدة التي سرت في عمودي الفقري لحظة تقابلت عيوننا للمرة الأولى. كأنها إشارة رعبي الأول. أبغضني حين علم بما أفكر وأحس. لأني عرفت بالحدس الثمين الذي اكتسبته من خبرة تزيد على سنة بالبحرية،

أن من يملك هاتين العينين لا يصعب عليه أن يعرف ما يدور بخلدي وسيكرهني حتما.

«سأمضي وقتا عصيبا معه»، همست بصوت عال.

لا أعرف متى تدوم هذه الحياة في «ساكوراجيما». لكن فكرة أني سأعيش طول هذه الفترة هنا، أي إلى لحظة موتي، وأنه سيكون الضابط المسؤول عني، ابتعثت عندي حسا غامضا ومريرا بالتشاؤم.

ذكرى تلكم الليلة بدت كأنها من زمان بعيد، عالم صغير للغاية وليس بإمكاني العودة إليه.

بعد فترة بدا أني غفوت في نوم عميق.

هكذا بدأت حياتي في «ساكوراجيما».

كان نظام المراقبة من فترتي مراقبة بالنهار وثلاث ليلا مع أخرى من السادسة بعد الظهر إلى وقت التفتيش، مما يمكن اعتباره مراقبة ليلية لا نهارية. تم الترتيب بأن يقوم بالمراقبة من يؤدون فترة المراقبة الصباحية. لذلك، في الأيام التي أكون فيها على رأس عملي فترة طويلة، عليَّ أن أقضي اثنتي عشرة ساعة من أصل أربع وعشرين ساعة. لا يعني هذا بالطبع وجود عدد كبير من الرسائل. أما نسبة المهارة المهنية لموظفي الإشارة فقد هبطت لدرجة أن بعض العمال لا ينتهون من فك الشفرة خلال نوبة عمل تدوم ست ساعات من نهار كامل.

ليس هذا مدهشا بالطبع لأن معظم موظفي الشفرة هنا متطوعون بمن فيهم الذين في عمر الخامسة عشرة. هناك شيء آخر مكدر، إن عليهم حفر مخابئ في غير أوقات الدوام الرسمية.

نتيجة لهذا يغفون في المناوبة الليلية وتمر الرسالة دون أن تكتمل كلما تبدلت المناوبة، وتظل أحيانا غير مكتملة حتى الصباح، فيقع اللوم دوما على ضابط الصف المناوب.

في المخبأ نفسه الذي فيه غرفة الاستلام توجد غرفة الشفرة بمنتصف الطريق أعلى الهضبة، وبسبب موقعها السيئ فهي رطبة وجوها فاسد بشكل فظيع، حين تذهب لتباشر عملك تحس بالغثيان فالهواء قذر، وبالتالي اقترحوا فتح حفرة فيها للتهوية. لا شك أن فكرة إنشاء هذه الحفرة لإدخال الهواء البارد شيء جيد، لكن ذات يوم وأنا بالموقع أشرف على بعض رجال فترة مناوبتي الذي يحفرون، قمت بإحصاء فوجدت أنهم لن ينتهوا قبل مضي ثلاثة أشهر. وبحلول نوفمبر ستهب حقا نسمات باردة، فانزعجت. قلت لأحدهم:

«من أمر بهذا العمل؟».

«المقدم كيرا يا سيدي».

«يظن أن المكان سيصمد خلال هذه الفترة هه؟».

وضع الرجل السلة التي يحملها جانبا على الأرض، جاء ووقف أمامي.

«هل سيغزونا الأمريكان قبل أن ننتهي من الحفرة سيدي؟».

بدا وجهه وقورا. هو أحد موظفي الشفرة، في العقد الثاني من عمره، ضمن الذين جاؤوا بعمر الخامسة عشرة. سحبت من سيجارتي بقوة وسألته:

«هل تظن أننا ننتصر؟».

«بلى سيدي، أظن».

لم يبدِ وجهه علامة تدل على الشك، كأنه من شخصيات العالم الخرافي. أحسست باليأس فجأة فطلبت منه العودة للعمل. لا بد أني كنت سمجا تلك اللحظة. وقفت، سحقت سيجارتي بقدمي ثم مشيت لبعيد.

صعدت أعلى المنحدر بحذر، وجدت قمة الهضبة مغطاة بقليل من الشجر الطويل، لذلك رحت عبر الممر الذي تنتظم فيه كالخيط، وكانت شمس الظهيرة تضرب وجهي فيتصبب العرق من دون انقطاع. حالما خرجت من بين الأشجار وصلت حقلا كبيرا نوعا ما، تنمو في وسطه شجرة بلوط ضخمة. تحتها أحد المتطوعين وقد نظر حوله مندهشا لدى سماعه وقع خطواتي.

كان قصيرا في الأربعين من عمره، فجأة لاحظت المنظار المزدوج بيده. حين رأى نظرتي المرتابة أبدى ابتسامة ودية صغيرة وقال بوضوح:

«أنا المراقب ياسيدي».

بالفعل هناك هاتف مثبت في جذع شجرة البلوط. يشرف الحقل على منظر واسع للخليج والسماء.

وخلال الدخان الحار الذي يومض فوق العشب صعدت إلى أعلى حيث الرجل.

«هل تستطيع أن تعيرني المنظار إن لم تكن تستخدمه؟».

«طبعا سيدي، يمكنك استخدامه».

أخذت المنظار، كان ثقيلا، وضعته على عيني أستعرض الحقل ببطء.

أمام عيني مباشرة رأس من الحمم التي تتدفق إلى البحر نتيجة البركان الذي تفجر في عام ١٩١٣أو ١٩١٤. كان جانبه هذا يشكل ساحة الميناء، ببرج من الماء في المنتصف شبيه بأبراج العصور الوسطى. يمكنني أن أرى الجنود ملتفين حوله يسبحون أو يغتسلون. كذلك بإمكاني رؤية البحر هادئا كأن زيتا صب فيه. حين أدرت رأسي صارت كتلة «ساكوراجيما» ضمن مجال المنظار. يخلو المكان من أي شكل للحياة النباتية. فقط كومة من الصخور الترابية الحمراء التي تحوي فلز الحديد مع رابية هائلة بها مواد بركانية. ملتهبة. لم يكن من المعقول تسميتها بالجبل. قد يكون هذا بتأثير العدسات. برزت الظلال حادة على سطح الأرض تغمر عيني بجبروت الطبيعة فاقدة الروح. لم أستطع رفع بصري كأنني سمرت.

«عفوا سيدي».

بدا الصوت منخفضا خافتا. أعطيته المنظار بشكل آلي، نظرت لوجهه، كان في وضع نصف الجالس يرقب ويسمع بانتباه.

«طائرة يا سيدي».

حينما أخذ المنظار مني نظر إلى السماء باتجاه الجنوب. لم أسمع شيئا، هناك فقط وابل أجش من سقسقة الزيزان. تخلو السماء من الغيوم والشمس ساطعة باهرة تدور ببطء لا يدرك. مجرد علامات على قرب طائرة من مكان في السماء وهي تشق طريقها في الجو. رفع المنظار عن عينيه مندفعا تجاه الهاتف على شجرة البلوط. رن الجرس، وبدا رنينه غير حقيقي عند سماعه في هضبة كهذه.

«طائرة «غـرامـان»، نعم هناك واحـدة فـوق «كـانـويا»، المسـار... المسار، شمال- شمال غرب».

عندهـا، وفـجـأة، بدا الصـوت واضـحـا في أذني، على رغم أنه ضعيف، وحين كنت على وشك النظر للسماء مسك الرجل كوعي.

«اختبئ، علينا أن نختبئ يا سيدي».

على بعد خمسة ياردات من شجرة البلوط، هناك وهدة خفيفة بالأرض، تزاحمنا مسـرعين عليها. استلقى كل منا بجانب الآخر على ظهره. قلبي يدق بشدة.

قال الرجل بهدوء «هذا كفني يا سيـدي» وضحك مستخفا. فعلا، الوهدة على شكل كفن، أضيق من أن تتسع لشخصين. درت نحـوه لأرد بشيء مـا، لكن حينها فجـأة مـزق الهـواء صـوت رنان تحول إلى انفجار، مر فوق رأسي الهيكل الضخم لطائرة الغرامان ببصيص فضي مضيء واختفى فورا. بدأت أنهض بشكل غريزي، حين فعلت ذلك انهمر وابل من الطلقات ثم سكن. انحسرت ضجة محـرك الطائرة، يبدو أنها اختـفت في البـحـر. انفـجـرت ثانية سقسقة الزيزان التي نسيت خلال عبور الطائرة، استجمع الرجل نفسه وهو يذهب إلى الهاتف.

«الطائرة ارتدت نحو «كاغوشيما». نعم، راحت لبعيد».

سمعنا صفارة واضحة بعد فترة من أسفل الهضبة. وقفت بين ورد الحقل انظر حولي للوضع بالأسفل.

بدأ الرجال الذين يحتمون في أماكن عدة الظهور تدريجيا على الطريق وفي الساحـة. رميـت نفسـي على العشـب وجلسـت قرب الرجل.

«أعتقد أن «الغرامان» ستعود».

«هذه هي المرة الأولى اليوم ياسيدي».

نظر الرجل إلى وجهي وهو يقول: «سيدي، هل أنت مجند؟».

«كلا، احتياط».

«هل أجريت فحص ضباط الصف؟».

«آه، لم أرد أن، لكن...».

«ذلك أفضل من أن تكون مجندا، أليس هكذا؟ ثم ضحك بعصبية.

«أهناك الكثير من الزيزان؟».

«أجل، فهي تسقسق حتى في الليل، يا سيدي» وعبرت وجهه خلجة من الاضطراب.

«مريعة يا سيدي، سقسقة الزيزان هذه؟».

وبعد توقف أكمل: «هي أبغض الأشياء إلى نفسي! فحين تبدأ السقسقة كل صيف أكون دائما غير محظوظ. مضحك أن أقول هذا، لكن... السنة الماضية، استدعوني أول يونيو وذهبت إلى ثكنة «ساسيبو» البحرية. أتوقع أنك تعرف الفرقة العاشرة ياسيدي. حسنا، كنت أقضي يوميا وقتا سيئا حتى أصابني اليأس حول الطريقة التي سينتهي فيها ذلك. ذات يوم ـ أثناء مناوبة الطبخ مع بداية السنة ـ كنا نصطف خارج المكان، فبدأت السقسقة الملعونة، بعدها سقطت «سايبون» وأعلمنا القادة أن وحدتنا ستقاتل حتى آخر رجل في الجنوب، مهما حصل»، وكف عن الكلام للحظة.

«حدث الشيء نفسه العام الماضي، سيدي، والعام الذي قبله أيضا، تبدأ سقسقة الزيزان كلما حصل معي سوء حظ أو مشكلة،

فأحس أني شبعت من الحياة. هذه السقسقة مخيفة، أليس كذلك؟ تشبه صوت الإنسان، هه؟ غريب، كأن ألحانها تعني شيئا. هل تعلم يا سيدي أنها في الواقع ليست زيزانا. أحس بالتعاسة وأنا أفكر باللحظة التي سوف يختارونها للبدء بالسقسقة هذا العام»، ثم صمت لفترة.

سألته: «كيف أصبحت مراقبا إذن؟».

«قمت بالتدريب عليه في الخريف، ولم يكن سهلا أبدا».

«خاصة أنك لم تكن صغيرا حينذاك؟».

«ليس بسبب العمر فقط يا سيدي».

«لم تنل تعاطفا كبيرا، كما أظن».

لم يرد.

«إنهم المتطوعون. المتطوعون الذين تمت ترقيتهم إلى ضباط صف. أولئك ليس لديهم أي إحساس».

أومأ وهو يقول بنغمة خفيضة حزينة: «حتى في ذهابي للبحرية لم أصادف أحدا لديه إحساس. كانت مفاجأة حقيقية. أستطيع إخبارك يا سيدي أنه ليس عندهم أي إحساس البتة. يظنون أنهم بشر، لكنهم ليسوا كذلك. هل هم بشر؟ هناك شيء في الإنسان العادي ينقرض تماما بمسرى حياته في البحرية، يصيرون كالنمل أو نحو ذلك دون أي إحساس أو عزيمة».

همهمت.

«يأتون كمتطوعين فيخسرون شيئا حيويا، بعدها يصبحون ضباط صف، وعلى مراحل عدة يقومون بعملية فيحصلون على ثلاث أو أربع شارات حسن سيرة وسلوك، تدريجيا يصلون إلى

مقدمين. أخيرا يتزوجون. ومن ثمَّ يقضون أوقاتهم وهم ينتظرون إسناد مهمة رسمية لهم أو ما شابه، يتدبرون مسألة معاشهم أو يحلمون ببناء بيت صغير في ساسيبو ليعيشوا فيه بعد التقاعد. هذا النمط من الحياة مضمون فعلا مقابل أي شيء له قيمة عند الإنسان. هل تستطيع التفكير في حياة أصعب من هذه؟ تفقد إنسانيتك لتكسب قوتك. مستحيل أن تحيا دون الوصول لأبعد من ذلك. انظر إليهم، هؤلاء المقدمين، فهم إما مغفلين ميئوس منهم وإما انزوائيين وإما أجلافا مملين».

«نعم، أنت محق».

تخيلت المقدم «كيرا». لم يكن انزوائيا ولا مغفلا، بل هو ذو نمط مختلف تماما، فعلى الأرجح، وطوال الوقت الذي عذبتّه عصا العقاب منذ اللحظة الأولى لتطوعه، ربّى نفسه على حس الانتقام المحزن، بينما صبّر الآخرون أنفسهم واستكانوا بسلبية. قد يكون هذّب تلك القسوة الطاغية التي تكمن في قلوب الرجال ونَهَل منها حتى لذاته. حين صار مقدما فجأة أحس أكثر بالاستقرار، وربما أدرك من موقعه أن المخالب التي رباها ليس لها دور. وهذا سبب مزاحه الغريب وتصرفاته غير المألوفة النزقة التي صعّد منهاوقت أن انتهى القتال في «أكيناوا» مع البحرية التي تشكل عالمه الكلي، والذي آل إلى الدمار. هناك صورة واضحة في ذهني لغرابة تصرفاته الشاذة مع الرجال جميعا وعقابهم في غير ضرورة، حصل هذا من يومين أو ثلاثة... انتشر الزّحار (الدوسنتاريا) ذلك اليوم، فقد تناول أحد رجال الشفرة أجاصة برية نقل بعدها إلى مشفى «كيروشيما» باشتباه المرض. إن أكل

الأجاص ممنوع كليا بأمر بريدي. تركت الرجل بحجرة المرضى لتناول العشاء في المسكن. كنت آكل بعض السمك المخلل- سمك صغير ورفيع يبدو أنهم اصطادوه في المشفى- حين مر من خلفي أحدهم واستدار. ذلك كان المقدم «كيرا».

«ضابط الصف «مور كامي»، ما خطب ياماشينا؟».

«أرسلناه إلى «كيروشيما» سيدي».

«هل صحيح أنه تناول الأجاص؟».

«واضح ياسيدي».

«ياماشينا» هو اسم البحّار موضع السؤال. بانت نظرة غضب على وجه الضابط كيرا:

«ألم أخبر الرجال مرارا أن تناول الأجاص ممنوع؟ هؤلاء الرجال قذرون للغاية هذه الأيام، لكنهم جميعا يمتازون فعليا بعمل الأشياء التي لا يتعين عليهم فعلها».

بدا صوته مخنوقا، ثم تابع وهو يحدق في وجهي: «يقع الخطأ أيضا على صف الضباط فهم قذرون، أما المتطوعون فيفعلون ما يشاءون. إن كانوا لا يريدون إطاعة أوامري فسأعلمهم معنى الطاعة. يا صف ضابط «مور كامي»، استدع الرجال».

لم أقل شيئا. ليس منطقيا معاقبة الباقي لأن رجلا واحدا أخطأ وتناول أجاصة. في الأيام القليلة هناك بدأت أحس بتأثير كوني موظف شفرة. لم أرد أن يُعاقَبوا دون سبب. ملامحي لم تتغير وصمت معاندا. استدار «كيرا» فجأة ثم خطا داخل غرفة البث.

تابعت وجبتي. منذ أن نودي عليّ، أمضيت وقتا كمجند في جميع الوحدات مثل محطة «ساسيبو» البحرية ووحدة «ساسيبو» للإشارة ووحدة إيبوزوكي الجوية. ذكريات عن كل أشكال الإهانات لا تزال ماثلة في خيالي وتجعل دمي يفور بمجرد تذكرها. والمرعب أني أدركت أنني في طريقي لاكتساب موقف الخنوع.

«يبدو أنني سأموت، ما هذا؟».

شعرت بالضيق حالما أنهيت وجبتي، فغادرت المخبأ ذاهبا إلى أسفل الطريق على نور المساء إلى غرفة الإشارة لأستلم المراقبة.

لم تكن هناك رسائل كثيرة. لا شيء يهم في ملف اليوم، مجرد رسائل تقريرية، على سبيل المثال طائرة «كينجا» تغادر مكان كذا أو كذا، أو البضائع قد أرسلت إلى كذا أو كذا. ضابط الإشارة المناوب ينعس في كرسيه، ويمكن سماع أصوات الباقين من كل مكان، نصف التلغرافيين من المدرسة الابتدائية للتدريب على الطيران، وتم تعيينهم بالإشارة لعدم توافر طائرات التدريب. وبينما أجلس ويدي تحت ذقني أغمضت عيني...

... قبل فترة وجيزة، وأنا أنزل في نور المساء، حلقت طائرة تدريب عتيقة فوق خليج «كاغوشيما» الآمن. لم تكن مسرعة بل تزحف عبر السماء بأجنحة تهتز بهدوء شديد. وكنت سمعت منذ يومين أو ثلاثة أن سرب طائرات الانتحاريين لقذف القنابل تستخدم هذه الطائرات. شعرت بعدها برغبة في إغماض عيني، لكن لم أستطع منع نفسي من النظر. رأيت الطيار الشاب في تلك الطائرة. فتحت عيني. كنت شاهدت بعض الطيارين الانتحاريين في قاعدة «بونوتسو». كانوا يقيمون في المدرسة

الوطنية التي تبعد قليلا عن وحدات القاعدة. مررت عليهم ذات مرة. أمام المدرسة الوطنية فهي مبنى يشبه كافتيريا للشاي أمامه مقعد يجلس عليه اثنان أو ثلاثة من هؤلاء الطيارين يشربون الساكي. كانوا شبانا في العشرين من عمرهم، بدت لفاعاتهم الحريرية البيضاء غير أنيقة وغريبة، لهم جميعا ملامح قاسية وتعابير وحشية. يغني أحدهم أغنية شعبية بنبرة عالية وفي شجن. بدا ذلك محزنا لي. إذن هؤلاء هم الطيارون الانتحاريون. انطباعي أنهم شبان جاءوا من الريف مباشرة في سن المراهقة. يلبسون قبعات على مؤخرة رؤوسهم ولفاعاتهم الحريرية فاقعة بطريقة فلاحين أجلاف. حين نظرت إليهم من بعد، استداروا عابسين ثم صرخوا بي قائلين: «علام تنظر أيها الوغد؟»، لا بد أنهم ظنوا أنني مجند جديد في الوحدة.

صعب أن أقول عن الشعور الذي انتابني: إنه غضب أو حزن، فقد كان شعورا لم أقدر على التعامل معه بشكل عام، وترك مرارة لا تزال في فمي حتى الآن. ممكن أن أتخيل الذين يواجهون الموت بسرور لا يفعلون ذلك دائما لأجل دافع نبيل وفي محيط المثال، لكن ما رأيته بالمسكن القريب هو شيء آخر يثير الاشمئزاز لرجل مادي صرف. حين عدت محني الرأس باتجاه القاعدة، لم أكن أفكر في شيء سوى كيف أعيش حياة بديعة إلى أن يأتي الموت فأموت بطريقة لا تدع مجالا للندم.

خرجت فجأة من تأملي ونظرت حولي، هناك رجلان على طاولة غرفة الشفرة. في المكان الخالي ترك أحدهما كتاب الشفرة السميك ولوحة الشفرات الجاهزة.

«ماذا حصل للساعة؟ لقد تجاوزت وقت الاستبدال بالتأكيد».

تطلع نحوي أحدهما قائلا: «لقد حضروا جميعا يا سيدي، لكن...»

«ماذا حصل طالما أنهم جاءوا؟».

«نودي عليهم من السكن. أي شخص بيده رسالة يبقى، أما من لا يفعلون شيئا فيعدون التقارير».

«من أرسل وراءهم؟».

«الضابط «كيرا»، لقد ظهر يا سيدي».

أجاب الرجل بقليل من العصبية، حتى شعرت بوجهي توتر. من يمارس سيطرة مباشرة على الرجال هو ضابط الصف. لم تكن سلطتي على الرجال في هذا المنحى وقد وضعت جانبا هي التي تزعجني. مسألة وقت الآن قبل أن يتحول المكان إلى ساحة معركة، أين تكمن الحاجة إلى رفاق السلاح في إيذاء بعضهم بعض؟ جعلني هذا أيأس تماما، فقد علم الرجلان بما حدث لزملائهما في السكن، وليس هناك من سبب سوى أنهم كانوا يفكون شفرة رسائل تم تكليفهم بها. لا يمكن السيطرة على الحس بالاشمئزاز، فقد جعلني أفقد أعصابي.

«حسنا، سأذهب للسكن كي أرى ما يحصل».

همست لشخص غير محدد ثم وقفت. ذهبت عابرا الممر الضيق فاكتشفت حلول المساء بالخارج.

صعدت الطريق الجبلي، وحين بدأت الانعطاف جانبا باتجاه الأسفل. توقفت بشكل لا إرادي.

وجدت الضابط «كيرا» يقف بمدخل السكن، وأمام المخبأ، على المنحدر المطل على البحر، كان الرجال جميعهم جاثين على الأرض.

يحمل «كيرا» في يده عصا بطول ثلاث أقدام، وهو يجأر بأعلى صوته على الرجال الذين يحاولون تدلية أجسادهم من الوسط لتلمس الأرض. اقتربت ببطء أكثر.

اتضح لي من وضعية أجسامهم الرخوة وجهودهم اليائسة لإراحة أيديهم أن الرجال كانوا على هذه الوضعية منذ وقت طويل. رؤوسهم جميعا ترشح بالعرق. استطعت أن أرى بوضوح جبهة الرجل تتصبب عرقا جنب قدمي. أحسست بأني أختنق. نفذت العقوبة مرات عدة، ولكون كوعيّ أضعف من غيرهما عند الناس فقد كان عليّ أن أتحمل الألم مرتين خلافا للآخرين. تلك الذكرى ارتبطت مع المشهد أمام عيني فشعرت أني أتنفس بصعوبة. استرقت نظرة إلى وجه «كيرا». بدا في النور الخافت شاحبا تماما بحيث جعلني أجفل. تعبير غريب، كأنه يغالب ألما مبرحا يبدو أنه يعذبه.

عيناه وحدهما تتقدان كالممسوس، تتنقلان جيئة وذهابا على ظهور الرجال المنبطحين، أما البؤبؤان فكانا بلون النار، عندها استدار فورا وهو ينظر نحوي.

يا «ضابط الصف «مور كامي»، بلّغ الرجال أن ينهضوا».

اندفع تجاهي، ثم رمى بعصاه أسفل المنحدر فضربت مرتين أو ثلاثا حواف الصخر بعدها سقطت في الوادي المغطى بالخيزران. وقف ساكنا كأنه يود أن يقول شيئا لكنه لم يفعل، دار بظهره عني

ثم سار خطوات واسعة نحو السكن. هناك إلى حد ما طيف من الوحدة يشمل كتفيه العريضين النحيلين.

«على أرجلكم، قف».

وقف الرجال جميعا ببطء وسأم. لديهم تلك النظرة الساذجة، ربما من التعب، كأنهم حيوانات محبوسة بأقفاص في حديقة حيوانات، محرومون من أي مقدرة على التفكير، وبحس غريب مشؤوم من الاضطهاد، قلت بصوت خفيض: «ليعد المناوبون إلى مواقعهم، والباقي انصراف».

مشيت مع المناوبين بطول الطريق إلى غرفة الشفرة. بوسط البحر هناك فقط بصيص من النور على أجمة الشجر المعتمة. هل توقع مني كيرا أن أعاقب الرجال على أرجلهم توبيخا؟ أم كان كافيا له إنزال عقاب مؤلم بهم؟ لا أعرف. بقي في ذاكرتي منظره من الخلف عند اختفائه بالسكن، كان يمشي كأنه يجر جملا ثقيلا وراءه. لقد فعل بالرجال ما كانوا يفعلونه بهم وهم متطوعون. بدا كأن هناك دافعا يسيره مثل داء مزمن في باله. هناك نوع معين من الشياطين داخله يجعله كالمسعور، وهذا فوق قدرتي على الإدراك، وربما فوق قدرته هو أيضا، (ذلك كان تفسير عينيه هاتين!)

حين كنت مجندا غرّا أخضع للتدريب، كان لضابط الصف قائد وحدتي عينان مثلهما، على رغم أن مزاجه مختلف كليا. عادة كان لطيفا، ثم فجأة تنتابه نوبة من الوحشية. سمعت فيما بعد أنهم أوقعوه في مشكلة ثم للمحاكمة العسكرية. على ذلك التمعت في ذهني ذكرى هذا الرجل الآن.

بالتحليل الأخير، فإن هؤلاء الرجال يعيشون في عالم مختلف عن عالمي. لكني انهمكت في فهم الشيطان داخل الضابط «كيرا»، أو بالأحرى لست منهمكا بل قلقا جدا من موتي الوشيك لانغماسي بالتفكير في هذه الأمور التي لا علاقة لي بها. يلازمني تهديد غامض بالموت منذ جئت «ساكوراجيما».

كنت بلا شك على الحافة. في النهاية كان عدم النوم لعدة أيام هو أحد الأسباب، لكنه ليس السبب الوحيد. باختصار، لست قادرا على تصديق مصيري. إن هذه الجزيرة اليابانية الجنوبية، التي عرفتها من دروس الجغرافيا بالمدرسة، حقيقية، لكني لم أتوقع زيارتها إطلاقا. لِمَ تعين عليّ الحضور هنا وإلزامي بالموت فيها؟ ذلك ما لم أستطع إدراكه أو إقناع نفسي بقبوله، فهو شيء لا يمكنك التسليم به. الوضع مُلحّ، فقد وصلت إلى النقطة التي يجب عليّ فيها الاستسلام لمصيري.

أحيانا يدور الكلام في غرفة الشفرة والسكن حول سؤال: من أين تجتاحنا القوات الأمريكية؟ هناك إشاعة مقبولة أن البحرية تتوقع إنزالا في «فوكيجاما»، بينما يركز الجيش قواته الرئيسية كلها للدفاع عند شاطئ ميازاكي. وكان آخر خندق دفاعي في «أكيناوا» قد انتهى للتو، وباءت هجمة «الياماتو» بالفشل. اتضحت هزيمتنا الساحقة من رسائل الشفرة التي نفكها كل يوم.

إن أردنا الحكم من الطائرات الأمريكية التي تحلق يوما بعد يوم، فإن الإنزال مؤكد في المستقبل القريب. هلّ شهر أغسطس بذلك الهدوء المحمل بتوتر منذر بالسوء. وليلة الأول من أغسطس كنت في المناوبة. تحت أضواء المخبأ الباهتة، والذي يضج برائحة

الأرض الجرداء، انهمك الرجال في استشارة كتب الإشارة، وعيونهم تومض بتجهم. بين الحين والآخر يأتي عداء بعينين ناعستين من مكتب الإشارة برسالة. هاجني صوت صفحات كتب الإشارة وهي تتقلب. تناولت الرسالة التي وصلت توا، كانت سرية للغاية، فأجفلت رافعا رأسي. مؤكد أنه حصل شيء ما أخيرا. قلبت بسرعة في كتاب الإشارة، وكلمة بعد كلمة دونّت الرسالة بـ «نموذج رسالة مشفرة»: «شوهدت قوة عسكرية للعدو قوامها ثلاثة آلاف سفينة. المسلك N».

الإشارة مرسلة من محطة نقطة المراقبة بجزيرة «أوشيما». توقفت.

«الرسالة عن قوة العدو العسكرية يا سيدي»، وطفت نظرة توتر خاطفة على وجه الضابط المناوب النعسان.

دوت أجراس كهربية، وأعلمنا غرفة العمليات فورا، وضابط الشفرة الرئيس، وضباط الشفرة وضباط الإشارة الذين كانوا يغطون في النوم في صفوف من أسرّة المبيت عبر الممر إلى غرفة الإشارة، أيقظهم الرجال فجاءوا محتشدين. حالما دخلوا غرفة الإشارة داروا بعيونهم يحاولون النظر بعيدا عن الضوء. تجمعوا حول طاولة الضباط يتكلمون بصوت خفيض. ازداد حجم الرسائل فجأة، وكل واحدة سرية للغاية. تقارير، برقيات معلومات، وأوامر تبث بالراديو إلى جميع الوحدات المنتشرة جيئة وذهابا عبر اليابان كلها. واضح أن وجهة القوة العسكرية إلى منطقة «طوكيو». أليس محتملا أنهم سيهاجمون عبر شاطئ «شيبا»، وبضربة واحدة يسيطرون على «طوكيو»؟ ليس

مستحيلا. محتمل أن سكان «طوكيو» نائمون هذه اللحظة لا يعرفون أي شيء عن ذلك.

داهمتني فجأة وبوضوح ذكرى هونغو، حيث كنت أعيش إلى لحظة استدعائي، واستدعاء أصدقائي كلهم. هناك الشوارع الهادئة والبشر الآمنون، لا علاقة لهم بالحرب إطلاقا. كان سوء الحظ الذي روضت نفسي عليه كشيء مقدر على وشك أن يتحول إليهم. إنهم ينامون آمنين في فراشهم، يجهلون أنباء ذلك الموت الشيطاني البشع. خطرت لي فكرة فجأة حملت معها طعنة حادة من الألم: إن نزلوا في «طوكيو» - ألا يعني ذلك أنني لن أموت كوني هنا في «ساكوراجيما»؟

شعرت بالأنين وأنا أتابع التفكير على هذا المنوال. ارتفعت الأصوات حول الطاولة تدريجيا. كانوا يضحكون أحيانا، بينما سيطرت أحاسيس عجيبة من اليأس وسط التوتر أكثر تعقيدا وهولا، حتى قاطعتني ملاحظات متكلفة ضاحكة:

«هؤلاء الموجودون في أركان الحرب وفي المقاطعة الغربية، الذين يظنون أنهم يتمتعون بوظيفة جيدة سوف يتلقون ضربة».

«لقد تأخر الوقت على أن يشتكوا من ارتكابهم خطأ كبيرا».

«لا يزال هناك متسع للهرب في سهل «كانتو» بالتأكيد».

أوضح أحدهم «يبدو أن الوحدات الانتحارية ستخرج للهجوم».

لفترة لم يتكلم أحد. نخر الألم ظهري. وعرضا قال أحدهم يمزح:

«ما الحكاية؟ في مثل هذا الوقت من العام القادم سوف نقوم بنقل الطحين الأمريكي إلى مرفأ «ساسيبو»، أو أي مكان آخر».

ضحك أكثرهم بهدوء.

«وحين يحدث ذلك لن يكون هناك أي مجندين».

قطع أحدهم الكلام فجأة بلهجة مختلفة غير مرحة أبدا: «كفوا عن هذا الهراء».

صوت جاد حازم. توقف الضحك. استدرت بطيئا كي أختلس نظرة.

«كفوا عن الكلام بهذا الشكل المهين أمام الرجال».

كان ذلك الضابط «كيرا». لم أعلم متى دخل غرفة الشفرة. داهمني إحساس بعدم قدرتي على النظر إليه، فاستدرت متظاهرا بفحص كتاب الإشارة. طغى على الغرفة سكون بارد، ثم سمعت أحدهم يقول: «هو يمزح فقط. كانت مزحة، وهذا كل شيء».

بهذا حاول أن يكبح «كيرا».

«لا أحد يظن أن تنهزم اليابان أو شيئا من هذا القبيل».

«سيادة الضابط كيرا، كف عن الجلبة حيث لا توجد حاجة إليها».

سمعت لهاثا متقطعا لكلمة «ماذا» تبعه على ما يبدو قتال. هناك ضرب مكتوم كأنه من لحم للحم، ثم ترنح أحدهما وسقط على ظهري وأنا أنحني للأمام. صلصلت لوحة الشفرة وتبعثر ما يقرب من ثلاثين أو أربعين رقما. أحسست تنفسا ثقيلا على رقبتي. تيبس ظهري، فرحت أحدق في كتاب الإشارة. أعتقد أني سمعت نوعا من الضحك الأجوف، فاستدرت لا إراديا. كان جسم المقدم كيرا محنيا على الإطار الخشبي الذي يؤطر المخبأ، ووجهه شمعي سحب منه الدم فاعتلاه تعبير كالقناع. أشحت ببصري

غـريزيا كـأنـي رأيت مـا يجب ألا أراه، تـكلم هـذه اللحظة بصـوت خفيض متأوه تقريبا: «كفوا، رجاء».

يصـعب أن أقـول إن كـان يعني: «كفـوا عن المزاح» أو «كفـوا عن مشـاجـراتكم». بدا صـوته ضـعيفـا كأنه يكلم نفسـه. طغى صـمت جليـدي. خـرج «كيـرا» أثناء هـذا الصـمت وهـو يتمـايل بوضـوح من المخبـأ، يتلوه صـوت حذائه على الأرض الرطبـة. يمـكنني أن أحس بالراحة بعد التوتر. تصـفحت دون أي هـدف ملف الرسـالة اليومي. اهتزت أصابعي وأنا أقلب الصفحات فحاولت التماسك بصعوبة.

(شوهدت قوة عسكرية. يكفي هذا وحده ليجعلنا في حالة توتر).

شـعـرت داخلي بنفـور كلي مـن هؤلاء الرجـال الذين فـقـدوا السـيطـرة على أنفسـهم وأنا منهم، ليس نفورا، بل هو أقـرب إلى الغضب. شـعـرت بالرغبة في تقطيع أوصـالي، وهم معي، وقذفهـا في الوادي. فضـربت رقبتي بمطواتي من الخلف مـرات عـدة، وكل مرة اندفع فيها الدم خلف رأسـي سبب لي وخزا مؤلما.

«يا ضـابط الصف «مـور كـامي»، يا ضـابط الصف مـور كـامي: رسـالة مشفرة لتعاينها ياسيدي».

تكلم أحد الرجـال هكذا، فمـددت يدي لأخـذ الرسـالة. كـانت مـدونة بخط ضـعيف طفـولي: «أول تقـرير خطأ، فيمـا يخص (قـوة العدو) اقرأ (وميض متقطع فوسفوري). حذار، محطة «أوشيما».

علت شفتي ابتسـامـة سـاخـرة. لم يكن ذلك كله مسـرحـية عبث. إن كـان الأمـريكيـون يراقـبـون الاتصـالات اليـابانيـة، فـمـاذا هم صـانعون بعاصفـة الأثير المفاجئة. كمية الرسـائل هذه من «أوشيما» إلى قاعـدة «يوكوهـامـا» البحـرية، ومن «يوكوهـامـا» إلى جميع أنحاء

البلاد وحدة وحدة. استلمت وحداتنا، قبل ذلك بقليل، أمرا بالتأهب من قاعدة ساسيبو. لا بد أنهم أيقظوا موظفي الصيانة لينزلوا إلى العمل. كيف يكون شعورهم حين عودتهم إلى الفراش بعد أن عرفوا أنه لا توجد قوة عسكرية، وإنما وميض فوسفوري متقطع. اتسعت ابتسامتي حتى خرجت عن حدود المألوف. نهضت لأقدم الرسالة إلى الضابط المناوب. ثبت الجميع عيونهم عليها، فلم يضحك أحد عليها حتى بعد قراءتها.

قال أحدهم بنبرة فاترة غريبة «إذن كان ذلك مجرد وميض فوسفوري». عدت إلى مقعدي فسمعت الضابط المناوب ينادي غرفة العمليات على الهاتف. واضح أن الخط معطل. لا بد أنه سيلاقي صعوبة في إيضاح الوميض الفوسفوري للطرف الآخر. استمعت في الوقت نفسه إلى ضباط الصف الآخرين وهم يتحادثون ضجرين فيما بينهم.

«يبدو أنه توتر أخير، أليس كذلك؟».

«مسكين. دخلت نحلة في القبعة على رأسه. هذا كل ما في الأمر».

انتهت المحادثة على أنه لا يوجد سبب للبقاء، فغادر الجميع المخبأ إلى السكن. حانت الساعة الثالثة، فوصلت نوبة المراقبة التالية لتحررنا. سلمنا الكتب ثم غادرنا غرفة الشفرة. حين خرجت من المخبأ، كانت الدنيا تغص بالظلام، وكي تعتاد عيناي انحنيت على الجرف عند المدخل أنتظر قليلا. هناك نيران كالعادة تشتعل ببطء لدى نقطة أو اثنتين في مدينة كاغوشيما على الشاطئ المقابل، يبدو أن أحدا لا يهتم بإطفائها. نيران باهتة تشتعل بالأماكن نفسها وهي تبعث صوت اللهيب نفسه في الليلة الماضية.

انطلقت، وبينما أسير بصعوبة أتحسس الجرف بيدي، رحت أتصور حشد أنظمة الفوسفور التي فسروها بأنها قوة عسكرية. تخيلت الوميض بالغ الدقة يلمع من نهايات المحيط المعتمة حتى الطرف الآخر وهي تلتف كالحزام وتتحرك بطيئا عبر الماء، أحسست عقلي ينتعش ويتطهر. علمت بالفعل أن ذلك كان ردة فعل لحالتي المزاجية الأولى فخليت نفسي تموج بهذا الإحساس. يجتاحني حس كامل بالوحدة في بهجة. هبت رياح الليل على وجهي. شققت طريقي بطيئا لأعلى فوصلت إلى السكن. حين دخلت كان أحدهم جالسا يتكئ على الطاولة بالطرف البعيد، نظر لي، كان «كيرا». بدا كأنه يجلس هناك منذ فترة.

«هل اقتربوا من نقطة الإنزال؟».

«علمت فحسب أنها وميض فوسفوري متقطع ياسيدي»، أجبته وأنا أحل ياقة بذلتي. هناك تعبير لا هو مروع ولا غامض ظهر لحظة على وجهه ثم اختفى ثانية. كان مثل تعبير الألم على وجه طفل يمرح. لم أتأكد من ذلك لأن ظهره للنور، بعدها أغلق عينيه وذهب إلى النوم. استلقيت أحاول أن أتجنب أي ضجة. غطيت وجهي بكلتا يدي. في جفني حكة دائمة. تلك الإصابة التي حدثت لي في «بونوتسو» شفيت تقريبا فبدت الندبة على شكل تجعيدة. وبينما كنت أحك بإصبعي أحدث ظفري صريرا خفيفا بإطار نظارتي. استلقيت أنصت شاعرا بالأسى.

أنهيت مراقبتي الصباحية وعدت ظهرا إلى السكن. أنبني ضابط الإشارة المسؤول عن المراقبة أثناء مناوبتي. كنت تأخرت عن تسليم رسالة، رسالة تحذير ليس لها علاقة بوحدتنا. ربما

أراد الضابط المناوب دعم نفسه في غرفة العمليات. أنهيت وجبتي مكتئبا ثم غفوت. حلمت. لا أذكر عن الحلم شيئا، فقط كنت أسير بمكان نصف مظلم أصرخ عاليا. كنت أتجول دون هدف وتنهل الدموع على وجهي. أصرخ وأنا أؤرجح ذراعي طوال الوقت وأدوس بقدمي. حينها بدأت أطفو على السطح بطيئا كما كنت ثم صحوت. العرق يبللني. جسمي كله بليد وثقيل، وبأجزاء منه مازال يرافقني الحس بأنني في حلم. على رغم أني صحوت الآن، إلا أن الدموع مازالت تنهل على وجهي كما في الحلم. بدا أني أود أن أتعلق بشيء، أو أستمر بالاستلقاء على سريري، أتحمل رطوبة جلدي المزعجة (هل يستمر ذلك؟ هل...؟).

أثارت عقلي نصف الناعس موجة من رد الفعل لأنهم لم ينصفوني. افتعلت نوبة غضب لم تكن ضد أحد بالتحديد، ولا حتى تجاه رئيس ضابط الشفرة. أحسست بغضب هائل على كل شيء قادني إلى مثل هذا الضيق، وانتابني فجأة حزن شديد. أليس مجهودا ضائعا كل هذا؟ كم مرة أحسست بمشاعر الفراغ هذه تتراكم داخلي، وأفر منها؟

جلست ثم انتفضت على السرير. حين طويت طرفي الغطاء، همست فجأة «حتى الغطاء له آذان». كم عانت مومس المدينة من التعاسة ومرارة فقدانها شحمة الأذن؟ تلك الليلة التي استكان فيها وجه الفتاة على صدري أخبرتني ببضعة أشياء عنها. كيف كانوا يدعونها في المدرسة «معدومة الأذن»، كيف باعت نفسها للبغاء، كونها خسرت شحمة الأذن، وأرغمها ذلك على الحضور إلى هذا النوع من كافتيريا الشاي البائسة. يقابلونها دائما بمثل

هذا الظلم. ما الذي يجعلها تزاول نشاطها في الحياة؟ تذكرت فجأة منظرها الجانبي الحزين، تلا ذلك استحضار ذكرى صورتها الضامرة.

(الاستمساك بالعاطفة، فصل مشاعري عما حولي، هل هي الطريقة الوحيدة للتخفيف من توتري؟) انتهى شبابي، وحياتي في «ساكوراجيما» لا تعني الآن شيئا عدا تزجية الوقت. انشغلت يداي آليا بطي الملاءات في أكوام غير مرتبة، ارتديت ملابسي وتركت المخبأ. نور المساء الباهر غمر عيني. قررت أن أذهب لأرى ما حولي في قمة الهضبة.

صعدت الطريق الصخري عابرا الغابة، إلى نقطة المراقبة. كان المراقب يقف تحت شجرة الكستناء كالسابق. حين تعرف علي ابتسم بشكل طفيف وروحه منطفئة.

«أنت ثانية ياسيدي».

أومأت، ثم ارتقيت نقطة المراقبة لأنظر حولي في الاتجاهات كلها. كان مشهد الشمس وهي تشرق كافيا لإسعادي تماما.

تجمعت سحب ممطرة بالسماء. حلقت أعمدة ضخمة على ارتفاع آلاف الأقدام تتلألأ، أسفلها أمكنني أن أرى مهبط طائرات «كاغوشيما» وعليه حظائر الطائرات المحطمة وعوارضها المعدنية الحمراء كالنار. وكانت المدينة المسودة التي تحترق تمتد شرقا، وحول المدينة جبال في تألق بديع بالخضرة الزاهية، لكن تجاه «تانييااما» يتعلق الغبار كالكرة، والضباب غشاوة فوق الوحل الذي يغطي جزءا من الهضبة تم اقتطاعه. الطبيعة فحسب جميلة، أما الحطام الذي فعله الإنسان فهو قبيح غريب. جلست على العشب،

فجلس الرجل جانبي كالسابق.

«على ما أظن فإن واجب المراقبة عمل قاس».

«ليس هناك شيء كثير ياسيدي».

«تبدو منزعجا، ألست على ما يرام؟».

«متعب يا سيدي، وهذا كل ما في الأمر»، ثم أشار إلى الخليج الآمن بحركة من يده.

«هناك ثلاث غواصات في الخليج ياسيدي».

«نعم، علمت بذلك في إحدى الرسائل. لكن أليست لنا؟».

«بالشفرة، أليس كذلك ياسيدي؟».

«كلا، نحن لا نعلم حقا إن كانت لنا أم للعدو».

«يقولون إنهم نسوا تعليق لوحة تبين أنها لنا».

«أوه».

صمت الرجل فترة ثم سأل:

«إن كنت بالإشارة ياسيدي، فكيف تنجح وحدة تلك الأولاد الانتحارية؟».

«ليس تماما على أي حال. يبدو أنهم أرهقتهم طائرات الغرامان».

«حالتهم ليست جيدة. هذا مخيف بالنسبة لهم، هؤلاء الطيارون الانتحاريون».

«مخيف؟ ما هو؟».

صمت الرجل لحظة. بعدها تحدث كأنه يعض كل كلمة يقولها، تابع «تعلم قصة «كيزو يوشيناكا»، ياسيدي، كيف نطلق الثيران في مخيم العدو مع مشاعل مربوطة بها. الثيران هم الطيارون

الانتحاريون. حين أفكر بذلك أحس بالأسى على هؤلاء الشبان في الوحدات الانتحارية. فهم ذاهبون إلى حتفهم دون معرفة السبب.

«أظن عندك أطفال؟».

«بين الحين والآخر تحلق تشكيلة من طائرات التدريب، أظن أنها طائرات انتحارية أيضا، أليس كذلك؟».

«نعم».

بدا وجهه شاحبا ربما بتأثير النور، لكنه منهك تماما.

«اعتن بنفسك، تعرف أن الحياة بالمخابئ تسلب الصحة».

«منذ زمان بعيد كان هناك من يعيشون في كاغوشيما باسم (عناكب الأرض) مثل الكوماسو، مثلنا، يعيشون في الكهوف».

«جئت من طوكيو، هه؟».

«انقرضوا، ربما كانوا عرقا ضعيفا».

«كم يوجد من الزيزان! إنهم كثيرون لدرجة الإزعاج».

«هذا من نوع زيز الدب. فهو يجثم على الشجر هنا وهناك يسقسق بأعلى صوته»، «الزيزان. آه الزيزان إنها لم تأتِ بعد هذه السنة».

ضحك بعصبية وهو يظهر أسنانه البيض. كان نحيفا عند الأكتاف مما جعل شكل معطفه يبدو طفوليا. استولى عليه قلق غامض. استلقى الرجل ويداه معقودتان وراء رأسه. يبدو كأنه لا طيران اليوم.

بدأ الرجل يتكلم بصوت خفيض:

«هل تعلم سيدي أني فكرت أخيرا بجماليات التدمير». كان يتكلم بحذر كأنه مع نفسه.

«إن الخراب جميل، أليس كذلك؟».

«كيف تدعوه بالجميل؟».

«لدي إحساس بأنه مع رغبة العيش، يتحرك الناس تجاه تدمير أنفسهم. لا أمنع نفسي عن الظن في ذلك.

وسط حياة الطبيعة العفية يذهب الإنسان نحو الموت في وهن كالعثة. هل يُعد هذا جميلا، أتظن ذلك سيدي؟».

تحول الجزء الأخير من كلامه لمناجاة.

«رأيت رؤيا غريبة أخيرا ياسيدي».

«ما هي؟».

سلمني المنظار مشيرا إلى جانب في الوادي:

«هل ترى ذلك البيت هناك، سيدي، بالمزرعة؟ هناك إلى اليمين. نعم. انظر إليه عبر المنظار. جانب البناء الرئيسي سقيفة، هل تراها؟ هناك شيء معلق بالإفريز، هل تراه؟».

رأيت عبر المنظار شيئا طويلا كالحبل يتعلق من عارضة المدخل إلى السقف المتداعي ويتأرجح خلفا وأماما في الهواء. يحبو طفل على الأرض أمام السقيفة وهو يلعب. لا أعرف ما هذا وماذا يعني. أعدت المنظار متوجها للرجل: «حسنا؟».

«ذلك البيت يخص عائلة فلاح ياسيدي. لديهم حقل صغير في مكان بعيد. يذهب الرجل وزوجته يوميا بالمعاول والأشياء. هناك عجوز يعيش معهم، يبدو أنه مريض بالفراش منذ وقت طويل في غرفة وراء المبنى الرئيسي. يخرج أحيانا إلى المرحاض -جانب السقيفة- لكنه عاجز تماما. عبر المنظار يمكنك أن ترى أنه متقلقل. والأكثر من ذلك فإنهم يعاملونه كأي إنسان على الطريق،

لأن المرأة تتذمر منه غالبا حين تعود لتجهز العشاء. وهناك طفل وجهه ممسوح في عمر السابعة أو الثامنة يستهزئ بالعجوز أيضا. أراهم من المنظار ولا يصلني بالطبع ما يقولونه. باستطاعتي أن أحكي بالإيحاء عما يفعلون وهذه هي الحال. يستهزئ الطفل بالعجوز، لكنه الحفيد، والأكثر من ذلك فهو يحتج».

«يبدو أنك تعرف الكثير عنهم»، ثم ضحك الرجل ضحكة قصيرة مبحوحة.

«هذا ما أظن الوضع عليه. حسنا، من وجهة نظر العجوز، فهو يحس أنه في الطريق بسبب ابنه وزوجة ابنه وليس لديه ما يتطلع إليه. في أحد الأيام وأنا أرقب من المنظار- ذلك كان بمنتصف النهار والحرارة لاذعة- زحف نحو الشرفة ثم خطا إلى الحديقة ومشى للسقيفة. راقبته، أظن أنه كان ذاهبا إلى المرحاض، لكن أظهر غير ذلك. بكثير من الجهد أحضر كرسيا وحبلا من داخل السقيفة. بينما كنت أتساءل ماذا سيفعل؟ وضع الكرسي عند المدخل يحاول الوقوف. لكنه كان عاجزا، بحيث وقع مرتين أو ثلاثا مرتميا بطوله على الأرض. انفعلت كثيرا حتى تعرقت يداي وهما تحملان المنظار. أخيرا جلس على الكرسي، وتعلق بالعارضة. ربط فيها الحبل ثم صنع الشكيمة التي ظلت معلقة في أنشوطة، شدها مرتين أو ثلاثا ليرى مدى متانتها».

«كان سيشنق نفسه».

«ربما اقتنع أخيرا، نظر من حوله. كان الصبي يقف خلفه مباشرة على بعد حوالى ست أقدام كالشبح. يراقب ما يحدث عن قرب دون أن يقول كلمة. وقف العجوز يحدق بالصبي من

غير أن يترك الحبل، والصبي أيضا بلا حراك كالصخرة يرقب العجوز بشغف. ظلا ينظران إلى بعضهما البعض عشر دقائق وهما لا يتحركان. في الوقت الذي انهار فيه العجوز ووقع من الكرسي، لم يتحرك الصبي ولم يبذل جهدا لمساعدته. زحف على الأرض يعبر الشرفة ثم استلقى ووجهه على الدرج الحجري، ومن طريقة اهتزاز كتفيه يمكنك الحكم أنه استلقى طويلا متنهدا. وقتا طويلا ومرعبا».

جلس الرجل فترة صامتا.

«رأيت ذلك الآن، فعلا. كان ذلك هو الحبل».

شعرت بكره مفاجئ لهذا الرجل، من دون سبب محدد. وبلهجة حاقدة بعد قليل سألته:

«لا بد أن ذلك منحك إحساسا بغيضا، على ما أظن؟».

«القسوة- هي الكلمة التي تعبر عن إحساسي. ما القسوة؟ هل حقا أجبر العجوز على ذلك؟ وهل كان الصبي الذي يرقب قاسيا، أم هي قسوة مني أنا في رؤية المشهد بسرية من المنظار؟ لا أدري، كان لدي إحساس أني أصر على أسناني وأنا أراقب».

رفع الرجل بصره يحدق في السماء، تعلقت الشمس وسط الهواء مشرقة تتلألأ.

رفع يده يظلل عينيه من الوهج، ومع النور الباهر بدا وجهه نصف مبتسم، نصف باك.

حين تركت المراقبة مساء وغادرت خارجا كانت الشمس مشعة بالسحب الوضاءة بوهج أول الليل. قال الرجال الذين أتوا لتوهم: إن هناك مؤونة من البيرة صدرت اليوم، وبعضهم كانت عيونهم

حمراء. حين كنت أناوب، جاءت رسالة عاجلة، قبل تحرري من المناوبة مباشرة، وحللتها.

كنت أفكر في هذه الرسالة حين عدت إلى السكن، مضمونها حاسم.

عندما دخلت السكن، وجدت صفا طويلا من الطاولات بمنتصف الممر، والرجال يجلسون على الصفين مع سطر من زجاجات البيرة. المكان بأكمله يغص بدخان التبغ ويمكنك أن تسمع صلصلة الزجاجات على البلور. شققت دربي لآخر طرف فاتخذت مقعدي. حينما شاهدت البيرة تصب في كأسي أحسست بانعدام قدرتي على المشاركة بروح هذه المشاكسات. تلطخت الطاولات بالرغوة البيضاء. نزعت ردائي ورفعت كأسي إلى شفتي. نزل السائل الفاتر على حنجرتي بحس ثقيل مبهج. كان ضابط الصف السابق والضابط «كيرا» يجلسان أمامي، وجه الأول أحمر بينما الآخر شاحب. فجأة جذب انتباهي صوته»:

«يقولون إن الأبنية الإسمنتية دكت تماما».

«تماما ياسيدي».

«يبدو أنهم مروا بوقت عصيب».

«أين، سيدي؟».

«في «هيروشيما»».

كنت أصغي عرضا. فجأة دار نحوي «كيرا»:

«يا ضابط الصف «مور كامي»، هل هناك أي رسائل؟».

عيناه الدامعتان كأنهما تومضان نارا. عبرت خاطري مرة أخرى الرسالة التي وصلت قبل أن أغادر عملي.

«القوات الروسية عبرت الحدود ياسيدي».

واضح أن كلماتي أصابته بصدمة كبيرة، لكن تعبيراته لم تتبدل. أفرغ كأسه دون كلمة. وفي قلق قرع الطاولة مرتين أو ثلاثا بأصابعه الطويلة من دون معنى.

«لقد اتحدوا ضدنا، أليس كذلك؟».

«لا أدري عن ذلك شيئا. تقول الرسالة فقط إن الأعمال العدوانية قد بدأت ياسيدي»، كنت أنظر بصعوبة في وجه كيرا. شيء كالابتسامة ظهر على خديه الخاليين من التعبير. ابتسامة قاسية تكفي لتخدير جسمك. حولت عيني غريزيا. قلبت كأسي وصببت البيرة في حلقي، صببت قليلا مرة أخرى من الزجاجة في كأسي. بدأ ينتابني حس بالثمالة تدريجيا. غمرني الوهن بحيث بدت أطرافي وقد انفصلت عن جسمي. ارتفع الكلام على الطاولات التي تبعد قليلا عني. الرجال تعروا حتى خصورهم فأخذت حبات العرق تتدحرج عليهم. عند المدخل بدأ نور المساء يتلاشى. كنت لا أهتم بما يحدث. تابعت الصب والشرب بينما أتكئ بكوعي على الطاولة. تخللتني الثمالة تدريجيا حتى بدأت أحس بالدوران. ظلت أفكاري المشوشة تتدفق داخلة وخارجة إلى ومن عقلي. فكرت في «بونوتسو» بشكل غامض، لا تزال الأوضاع جيدة هناك. أعطتني موظفة مكتب البريد عشرين بطاقة بريد هدية توديع لأني نقلت. لا تزال مدسوسة أسفل حقيبتي الصغيرة حتى الآن. لم أستخدم واحدة بعد.

فجأة شعرت بوخز ضميري، فمنذ مجيئي إلى «ساكوراجيما» لم أكتب حتى للبيت. محتمل أن أمي العجوز لا تعرف بعد أني

نقلت إلى ساكوراجيما. أخي كان في جيش الفلبين، قد لا يكون حيا، وأخي الأصغر قتل في منغوليا. انتابني شعور وحشي كعصف الريح. ماذا أنجزت الأمة اليابانية مع كل هذه التضحيات؟ إن كنا سندعوها جهودا ضائعة... وإذا كانت جهودا ضائعة فإلى من أوجه صرخاتي الغاضبة؟

أصبحت الثرثرة في المخبأ خشنة أكثر، وفجأة انفجر أحدهم عند طاولة في المدخل بأغنية، خرج عن اللحن وانضم العديد إليه. كانت أغنية (الكرز يزهر سويا). يضربون قواعد زجاجات البيرة بعنف على الطاولات. تحول المغنون- أصحاب الطبقات العالية والخفيضة معا- إلى أغنية جديدة. وبينما أتكئ على الطاولة، كنت أحس باهتزاز كوعي مع كل توقيع لهم. صببت المزيد من البيرة وابتلعتها.

كان «كيرا» الجالس في صمت يشرب يستدير دائما نحوي، عاريا لوسطه وأكتافه العضلية القاسية تتلألأ بالعرق. وجه ليّ الحديث بصوت خفيض لكنه غاضب:

«هل قلت للرجال إن الحرب ستنتهي آخر هذا العام؟».

«لم أقل ذلك ياسيدي».

ثبت في وجهي عينيه الكريهتين المخبولتين. قررت التصرف عرضا. اهتزت اليد التي أرفع بها الكأس قليلا.

«ربما قلت ما يوحي بهذا، فلو استمرت الأمور على المنحى نفسه، معركة يائسة بعد أخرى، فإن الخسائر ستكون كبيرة على كلا الجانبين، بحيث لا يستمر أحدهما طويلا».

حين تحدثت شعرت بفورة غضب على ضعفي. حدقت به

قائلا: «لا يهم كثيرا، أليس هكذا؟ شيء سخيف؟».

قال بلهجة ملحة: «هل تنتهي هذا العام؟» وبدا حديثه افتراء.

«ضابط الصف «مور كامي»، هل تخاف الموت؟».

«لا يقلقني ياسيدي».

«أنت خائف منه، هه؟».

تحركت قريبا من وجهه حتى لمحت العروق الحمراء في عينيه بوضوح. جعلتني السكرة شجاعا.

برد وجهي كالثلج وأنا أتلفظ كل كلمة في إجابتي بوضوح:

«هل ستكون راضيا إن كنت خائفا؟».

للحظة بدت عينا «كيرا» مليئتين بالكره. أجبرني شيء ما على ألا أنهض، فظللت جالسا. أحنى كيرا رأسه للوراء منفجرا في ضحكة تشنجية. صوته ضاحك، لكن وجهه لا. أما يداي المطبقتان على الطاولة فكانتا تنضحان بالعرق.

تهادى نحونا أحد الرجال. تحولت الأغنية إلى خليط من أصوات غير واضحة.

«سأرقص ياسيدي».

«حسنا، ارقص» قالها «كيرا» بعد أن كف عن الضحك، وكان يتحدث بلهجة توبيخ.

لوى الرجل العاري حتى وسطه يديه بطريقة لافتة، ثم انفجر فجأة في نوع من الرقص السريع، رقص كيفما اتفق، يدعونا لتمييز اللحن. يرتكز على قدميه المترنحتين، يداه معقوفتان كمخلبي قط، يستقيم وينحني، وطول الوقت يدعونا إلى تمييز اللحن. كف الغناء وتبعه ضحك خشن.

«ما هذا بحق الجحيم؟».

«قف، قف».

ازدادت سرعة الرجل بالتدريج، اندفع كالممسوس، عيناه مقفلتان إما لشعوره بالسكر وإما لأن العرق ينضح من جبينه داخلا عينيه، لا أستطيع أن أجزم. ترنح يسند نفسه على حائط المخبأ. غيمة من غبار حقيقي ارتفعت نحو وهج المصابيح الكهربية الساطعة. حياني بتعبير لا مبالٍ.

«هذا كل شيء يا سيدي، هي رقصة من «شيكوكو»».

عاد الغناء من جديد. بدأت تلوح من حولنا تلميحات بذيئة، لكني لم أسمعها بوضوح. وعلى مسافة هناك صوت تحطم زجاجة بيرة بينما «كورس» غير مدرب يبدأ الغناء:

«وداعا «رابول»،
عيناي ملؤهما الدموع،
حيث ينبغي أن أودعك
إلى أن أعود».

أغلقت عيني. قلبي يخفق بشدة. أسندت ذقني بيدي. وجهي خشن من تراكم الغبار عليه. انتابني صداع غريب، وتركزت أفكاري في شيء واحد.

لم أكن خائفا من الموت. ليست المسألة هي عدم خوفي. لنتحدث بصراحة، كرهت فكرة الموت. لكن، إن كنت سأموت على أي حال فأريد أن أعرف لماذا. إن موتي هنا، مثل قط أعزل على هذه الجزيرة مع رجال يعيشون كالحشرات، شيء قذر تماما. وبما أنه لم يباركني شيء يستحق أن أسميه السعادة، فإنني كنت أعمل

بجد وكد لأبني شيئا ما، والذي سينطمر الآن كليا في الوحل. لكن مـا ا لخطأ؟ هل ذلك شيء رديء؟ ودون أن أدرك مـا أقـوم به، وجدت نفسي أتحدث مع الضابط كيرا:

«أيها الضابط، إن كنت ممن سيموتون، فإني أريد للحظة موتي أن تكون لحظة جميلة، على الأقل». علت شفتيه ابتسامة قاسية. قال بخبث كأنه يعهد لي بمهمة:

«اسمع، لقد شهدت معارك في كل مكان منذ انضمامي إلى الخدمـة. رحت الصين والفلبين يامـور كـامي. تصـور وابلا من الرصاص على حقول تحترق، ونحن وحدة البحرية نتقدم في وسطها. كل مرة تصفر فيها رصاصة تحس أنها سوف تخرق جبهتك. تفتش عن الهدوء وسط الضجيج ثم تركض مجنونا. تعرف أنه لو أصابتك رصاصة فستصرعك قوة مرعبة. كل امرئ غيرك سوف يتقدم وأنت وحيد في العراء، في الحقول التي احترقت، تكافح وحدك، ومـا إن يمضي وقت قصير حتى لا تستطيع أن تسير وتغص بأنفاسك. يتلوى وجهك، وتتخثر ينابيع دمك المتسخة في الوحل. يأتي ليل ثم نهار، وفي المساء تتجمع آلاف من الغربان تنقر لحمك لتبعثره. هناك آلاف من اليرقات أيضا. سريعا، يأتي الليل وتهطل أمطار باردة تلعق عظم ذراعيك وعمودك الفقري. لا أحد بإمكانه أن يقول من أنت أو من أين جئت. لا أحد بإمكانه أن يقول إنك جثة أم لا. تريد ميتة جميلة ياموركامي؟ تريد لموتك أن يكون جميلا؟» حين انتهى انفجرت منه ضحكة رهيبة كانت كافية لتجعل جسمي يتخدر. حاولت السيطرة على نفسي والتفكير بذلك الملازم الشاب «تاني»، الذي قال لي إن

المسألة لا تتعدى، مسألة العاطفية لدى المرء الذي يريد أن يموت ميتة جميلة. لكن ما معنى هذا؟ هي العدمية التي تأكل روح «كيرا» أو روح «تاني». ما سر اشتياقي أن أموت ميتة جميلة؟

انتابني حزن غريب. لم أنظر إلى «كيرا» مرة أخرى بل حدقت بخواء إلى الطاولة. بدأت المشاكسات تزداد. ولجلد أحاسيسي التي خبلها السكر، صببت مزيدا من البيرة في حلقي. يقلقني شيء منذ فترة، كنت أقمعه باللاوعي كلما هدد برفع رأسه، اتخذ فجأة شكلا واضحا في ذهني. ما الذي أعيش لأجله؟ ما هو؟

هذه «الأنا» ما هي؟ لثلاثين عاما منذ ولادتي وأنا أحاول اكتشاف هذه «الأنا». أحيانا كنت أنظر إلى نفسي بتكبر كإنسان فوق الوسط، وأحيانا أخرى كمن لا قيمة له. تألفت حياتي من موجات بين الفرح والحزن. عندما يحين وقت الموت فعليا- وهو على وشك الحدوث- ماذا سأتخذ من موقف، الآن، وقد تخليت عن كل زعم وخداع؟ هل أهرب حين تواجهني حرية معدنية تدمر ما أسميه «الأنا»؟ هل سأدب على الأرض طالبا الرحمة؟ أو سأخاطر بكرامتي وأحارب؟ ما كنت أبحث عنه من ثلاثين عاما سوف يتضح في تلك اللحظة (ستموت، أليس هكذا، كيف تموت؟ أخبرني، تعال، ما نوع الميتة التي ستموتها؟) حين سألتني المرأة مقطوعة الأذن عن ذلك، كان صوتها كأنه يبكي، ومن ناحية أخرى كأنها تمنع نفسها من نوبة ضحك. وبعيدا عن ضجة الغناء الذي سببه السكر، استطعت سماع صوتها مرة أخرى بوضوح تام. ملت برأسي إلى الخلف، واستندت إلى الحائط ثم أغلقت عيني. في رأسي صوت سقسقة الزيزان. آلاف وآلاف من الزيزان تسقسق بجنون في رأسي...

أخذت حفلة المخبأ الغريبة تهتاج أكثر فأكثر، وصل الانفعال إلى درجة الحمى. حين هب النسيم من المدخل، ارتفع الغناء مرة أخرى واهتزت الطاولات. فتحت عيني. دخلت روسيا الحرب- ماذا يعني؟ هززت رأسي بقوة مرتين أو ثلاثا، ومحاولة للفكاك من مزاجي السابق، انضممت للغناء. وضعت يدي على الطاولة أحاول النهوض، أحاذر من ثقلي على ساقي المقلقلتين. رن صوت الضابط «كيرا» وهو يعبر المخبأ كعصف الريح.

«أيها الرجال هاتوا سيفي».

واضح أنه ثمل جدا لا يعرف ماذا يفعل. عيناه جامدتان ووجهه شاحب بشكل مخيف. حاول الوقوف لكنه فقد الاتزان فاتكأ على الطاولة بكوعه. سقطت زجاجة بيرة فسببت صلصلة هائلة، وسالت الرغوة البيضاء على الأرض. أسند يدا واحدة على الطاولة يحدق بمرؤوسيه.

«هاتوا سيفي. سأرقص لكم رقصة السيف».

ترنح للأمام، وعلى رغم الصمت بدأ أحدهم يرتل قصيدة صينية بما يشبه صوت الخنزير، ما هذا، لا أجزم، مستحيل وصف الكلمات أو اللحن بشكل واضح. مازال كيرا ينتضي سيفه، وهناك تصفيق لكنه توقف. انفجرت بعض الضحكات. انضم صوت ثان يرتل في غضب غير واثق يسبقه نوع من الهمهمات التمهيدية. تأرجح «كيرا» أماما وللخلف من خصره وهو يحمل سيفه. فتح عينيه على وسعهما فجأة. دفع سيفه قرب أسفل الجدار، وحين انتصب واقفا رفع قبضته إلى عينيه. فقد اتزانه فحاول التعلق بكتفي. وقع السيف من يده فارتمى دون ضجة على الأرض.

«موركامي». خذ شرابا! خذ شرابا آخر!».

تخدر كتفي من قبضته، فهززته لتخفيف الألم، ثم مددت يدي اليسرى لأتناول زجاجة أخرى من البيرة.

نزلت من الهضبة، رحت أغسل ثيابي تحت برج الماء في ساحة الميناء. الطقس حار ولا توجد غيمة واحدة، هناك نسيم فحسب يهب ثابتا من جنوب الشرق. بدأ الغسيل يجف بسرعة. كان حولي حشد من رجال يغسلون عند البرج، لم يكن أحدهم شابا. سمعت رجلا يغسل ثيابه جانبي وهو يقول لآخر: «يقولون إن روسيا انضمت إلى الحرب، صحيح؟».

«نعم».

لم يقولا أكثر. استاء الرجل الذي وجه له الكلام، وطفت رغوة الصابون التي يغسل بها إلى الأخدود من أمامي، مثل كتلة بيضاء مموجة. وبما أن مكتب صحافة «كاغوشيما» احترق، فقد انعدم تقريبا وصول الصحف إلى المخيم. سمعت أن ضابط الشفرة الرئيسي منع الرجال من تداول معلومة دخول الروس إلى الحرب. على رغم ذلك لم يطل أمر انتشارها. ساد حس بالاستخفاف في الوحدة. مستحيل أن تضع إصبعك على شيء محدد، لكن يمكنك الإحساس به كرائحة تدمير. يقضي الضباط يومهم في كسل تحت المظلات المنصوبة بجانب طريق الشاطئ. حتى الرجال الداخلين والخارجين إلى ومن المخبأ بسلال الأترية فهم يتجولون في كسل أيضا.

بينما كنت أسير على طريق الشاطئ، صعدت الهضبة وفي يدي صرة غسيلي. علقت الغسيل بحذر على الأشجار أمام

السكن. سوف تقع مشاكل إن شوهد من الجو. دخلت المخبأ، أخذت بعض ورق الرسائل من حقيبتي الصغيرة. جلست إلى الطاولة أنشر الورق أمامي، وأفكر بصعوبة. بعد قليل، كتبت السطر الأول على ورقة، كان كلمة و احدة «وصية». وضعت قلمي ثم حدقت في الجدار أمامي.

لم أستطع التفكير بشيء آخر أكتبه. كان هناك الكثير من الأشياء التي أريد الكتابة عنها، لكن اتضح أنها هراء. ليست «الوصية» موجهة إلى أحد تحديدا. زاد انزعاجي. وقفت وقطعت الورقة إلى قطع، رميتها بعيدا.

حالما غادرت المخبأ إلى قمة التلة، انتابني حس بالحزن. ما هدفي من كتابة وصية. أردت أن أكتب استغاثة إلى أحد، لكن عن ماذا؟ أردت إيصال حزن لا يؤطر في كلمات إلى أحدهم، حزن يصبح هائما وهو يتحول إلى كلمات يمكن أن نسمي هذا فعلا عاطفيا، ماذا يهم إن وجدت بعضا من الراحة في ذلك؟

وصل الطريق إلى نهايته فدخلت الغابة. فكان ذلك هو الدرب الذي يوصل إلى مكتب المراقبة. قد يكون المنظر المزدهر هو ما يحرف فكرك عن الأشياء. تطلعت إلى السماء. سقط النور الذي يتخلل الأغصان المشتبكة على وجهي بشكل بقع. سمعت فجأة، وسط سقسقة الزيزان، ما يشبه صوت المحركات. رقدت إلى حافة الغابة أنظر للسماء. اخترق الهواء صوت حاد من ناحية البحر الساطع هائل الزرقة. ظهرت بقع سوداء، وفي لمح البصر كبرت وهي تتخذ شكل طائرة تتجه نحوي مباشرة بوضوح، غمرني إحساس بالخطر، لا بد أنهم سيهاجمون هذا المكان. ركضت بالغابة

أتوغل فيها لاهث الأنفاس. الصوت مخيف ومرعب، صار المحرك أسرع أسرع، فأصم أذني. حاولت، والعرق يتصبب مني، أن أتوغل في الغابة أكثر. عندها، فتحت الطائرة بشكل واضح ومباشر نيران مدافعها مع زئير شلني. ارتميت غريزيا على الأرض، ضاغطا نفسي لحظة انزلاق الخيال الأسود الكبير للطائرة كبركان.

استلقيت ووجهي إلى الأرض وعيناي مغلقتان بإحكام. قلبي ينبض بجنون أشد مما يحتمل. فتحت عيني وأنفاسي تلهث. صعقت أنفي رائحة التراب. تقهقر صوت المحرك. نهضت بطيئا لأنفض عني الغبار. مسحت العرق بثيابي ثم نظرت إلى السماء من بين الغصون. يبدو أن الطائرة اختفت في الأفق البعيد. بدأت أمشي. في حادثة سابقة حين شاهدت طائرة «الغرامان» من مكتب المراقبة، أعترف بأني ارتجفت لكني لم أشعر بالخوف. ما هذا الخوف الغريب الذي انتابني الآن؟ ما هذا الرعب القبيح الذي جعل أسناني تصطك؟ لا بد أن أفكاري أعتمت في الأيام القليلة الماضية وهي تتعلق بالموت، فخلفت آثارا في ذهني. كان لتفكيري بالموت تأثير معاكس ظهر في رغبتي في التمسك بالحياة. حين صعدت قرب بريد المخبأ، كنت أبتسم لنفسي بضراوة.

(إن من هو على وشك كتابة وصية، يرقد بجبن كحيوان الضب، وهو يحاول الهرب من الموت).

انتابني شعور مرير ساخر. وصلت بريد المخبأ، نظرت من حولي فلم أر أثرا للمراقب. لاحظت فورا أن هناك شيئا أبيض تحت شجرة البلوط (ألا يزال مختبئا؟)، اقتربت أكثر

محتارا. تحت شجرة البلوط، كان المراقب منبطحا دون حراك كأنه لم يسمع خطواتي. يداه مفرودتان على الأرض بالتواء غير طبيعي. جانب وجهه المرئي معفر بالتراب وشاحب بشكل غريب. وقفت مرتاعا. رأيت بقعة دم حمراء على العشب. سكنت كالجذر في مكاني أحس أن ماء باردا صُب علي، يخرسني الرعب.

حول منتصف شجرة البلوط حيث يستلقي الجسد، كانت الزيزان تسقسق بهدوء وثبات، تبث لحنها ذا الطالع السيئ كرسول من الجحيم. امتلأت عيناي بالدمع الحار فجأة (لابد أنه سمع سقسقتها لحظة موته). انحنيت على ركبة واحدة أحاول رفع جسمه. ترنح رأسه ببطء. لحيته نابتة، وعيناه مغلقتان غائرتان لدرجة يصعب التعرف عليهما. اخترقت جبينه رصاصة. امتد جدول دم يتدفق من الجرح حتى صدغه. ليست هناك إشارة على إحساسه بالألم. أمكنني من بين شفتيه المنفرجتين قليلا أن أرى أسنانه الكاملة. بدا ثقيلا بشكل غير طبيعي على ذراعي، بينما كنت أمسح دموعي باليد الأخرى.

حتى آخر لحظة، لم أعرف اسمه أو ظروفه أو محل ولادته. اهتمامي به لم يكن أكثر من تعارف اتفاقي. أليس إسهابه في شرح جماليات التدمير طريقة يروض بها نفسه على أنه سيموت هنا؟ ربما كونه خاف من إنذار مسبق بسوء الحظ، فقد كان يقنع نفسه مرة تلو أخرى بجماليات التدمير. وقد يكون كلف نفسه عناء استنباط بعض الأسباب لتنبؤه بالموت؛ فحاول جاهدا أن يصدقها «كيف للخراب أن يكون جميلا؟».

وضعت جسمه على الأرض، وفكاي منطبقان بإحكام. لماذا تخلى عن رغبته في البقاء حيا؟ بم أنه أقنع نفسه بالوضع النفسي الصحيح فقد مات في النهاية دون ندم، وسقسقة الزيزان في أذنيه.

حركت ريح خفيفة لحيته النابتة. بان جسمه كأنه يتلبس ابتسامة. شعرت بجيشان عاطفي غريب داخلي، لم يكن حسا بالقرب منه، ولا الكره أيضا. وقفت، رأيت ظل نفسي المتقلقل يسقط على الجثة المستلقية هناك تحت شجرة البلوط. سرت أتنفس بعمق تجاه الهاتف ملتقطا السماعة. انفجر في أذني صوت فجأة:

«ماذا حدث «للغرامان»؟ ذهبت؟».

«مات المراقب ياسيدي».

«ماذا؟ إني أتكلم عن «الغرامان». لماذا لم تخبرني من قبل؟».

«... المراقب مات ياسيدي» وأعدت السماعة.

التقطت قبعة الرجل. ركعت أمام الجثة لأغطي وجهه بالقبعة، وقفت أحبس أنفاسي. تحركت بسرعة البرق لأمسك أحد الزيزان التي تسقسق بإلحاح. تحول التناغم المنظم في يدي إلى سقسقة مشوشة. الجناحان يئزان بسرعة أعطتني إحساسا حادا كالحرق على راحتي المتعرقة. هل توجد هذه القوة في حشرة فقست حديثا. تملكتني رغبة أن أسحقها بقسوة. عصرتها في يدي بكل ما أملك من قوة، ثم وضعتها في جيب بذلتي. كان السائل من جسم الزيز مقززا حين انتشر براحتي. تمنعت بنفسي على هذا الشعور وأنا أقف ناظرا على جثة الميت. لم يصعد أحد بعد من أسفل الهضبة. انتشر دوار طفيف بمؤخرة رأسي فارتجفت.

صدر الأمر هذا الصباح، مادام الإمبراطور سيلقي خطابا في المذياع فإنه يتعين على كل شخص خارج المناوبة أن يستمع إليه. ولأني رأيت الرسائل كلها التي تخص وحدتنا، فقد عرفت ذلك، لكني لم أقرأ أي جريدة أو أستمع للراديو. منذ مجيئي إلى «ساكوراجيما»، بت منقطعا عن العالم الخارجي. لهذا لم أفهم مغزى برنامج الإذاعة للإمبراطور. وبمعنى من المعاني، لا توجد سابقة لذلك، فاستطعت تخيل أن الأمر جاد. عدم اليقين جعلني أحس أني على الحافة.

لكوني أناوب هذا الصباح، فليس باستطاعتي الاستماع إلى الراديو. حالما أنهيت عملي عدت إلى السكن، وضعوا المذياع في الساحة أسفل الهضبة، الجميع هناك يستمعون. بعد أن أنهيت وجبتي في الغرفة، رجع الرجال الذين كان عليهم واجب الاستماع. فكرت «سوف تستغرق الإذاعة وقتا طويلا». أشعلت سيجارة وذهبت إلى مدخل المخبأ، رأيت بعض أمواج في الخليج، والزيزان تسقسق في كل مكان. الشمس حارة، لكن الخريف على الباب. رأيت الرجال يعودون إلى السكن كل اثنين أو ثلاثة. واضح أن بث الإذاعة انتهى.

«عمَ كان يدور البث؟» سألت الشاب المسؤول عن الإشارة، الذي دخل توا إلى المخبأ.

«كان المذياع سيئا فلم نتمكن من السماع جيدا يا سيدي».

ثم أضاف رجل آخر:

«كان هناك تشويش كثير فلم تلتقط شيئا».

«لكن الخطاب طويل، أليس كذلك؟».

«بعد البث جاء خطاب من الضابط ياسيدي».

«حول ماذا؟».

«قال إننا تباطأنا وكنا كسالى فذهبنا للقيلولة خلسة، لكن إن ربحنا الحرب فسنحصل بالتأكيد على ما نريد. خدمة الوطن مطلوبة الآن وأبدا. هذا ما قاله ياسيدي».

«إن ربحنا الحرب؟ هل قال ذلك؟».

«نعم ياسيدي».

حياني الرجل وذهب إلى المخبأ. ألقيت سيجارتي بعيدا إلى الجرف متجها نحو غرفة الشفرة.

في اليوم السابق، جاء ضابط الإشارة الرئيسي إلى غرفتنا وتفحص كتب الشفرة. قال إنه يستحيل التنبؤ بموعد إنزال العدو، لذا من الأفضل إحراق كتب الشفرة كلها لأننا لن نحتاجها، كي نتجنب أي اضطراب عندما يحين الوقت. حُدِدَ موعد الحريق مساء اليوم، فنويت أن أكون حاضرا. حينما اقتربت من غرفة الشفرة، قابلت اثنين أو ثلاثة من رجال الإشارة يخرج كل منهم يحمل صندوقا خشبيا ثقيلا على كتفه.

«هل تلك كتب الشفرة؟».

«نعم سيدي».

صعدنا الممر المؤدي إلى قمة الهضبة. سرت عائدا مع ضابط إشارة كان يقف في المؤخرة حاملا زجاجة وقود البنزين على المنحدر المواجه لمكتب المراقبة. على جانب الغابة الآخر هناك حفرة صغيرة. ألقى الرجال هناك صناديقهم الخشبية، ثم جلسوا يمسحون العرق عن وجوههم. حين اقترينا توقفوا ثم بدأوا في

إخراج كتب الشفرة من الصناديق. كوموها بالحفرة، كلها مغلفة بالأحمر، بعضها كبير وبعضها صغير، بعضها تالف من كثرة الاستخدام وبعضها جديد.

ذهب ضابط الإشارة إلى الجانب الآخر وصب الوقود على الكومة. أشعل عود ثقاب، فاندلعت ألسنة زرقاء وبدأت الأغلفة الحمراء تتجعد كشيء حي، وسرعان ما أصبحت كتلة نار حمراء. شعرت بقليل من الندم يطبق على حنجرتي. كلمت الضابط: «عن أي شيء كان البث اليوم؟».

«لا أدري. يقولون، أمر إمبراطوري بالدفاع عن اليابان حتى النهاية».

«من قال هذا؟».

«ضابط إشارة، كما قال كيرا شيئا كهذا أيضا».

وقفت أرقب ألسنة اللهب، ووفقا لمسار هبوب الريح أحيانا، كنت أحس اللفح في وجهي. أخذت كتب الشفرة تحترق بطيئا لفترة بحيث لم تصل النار للأجزاء جميعا، تتجعد الصفحات ثم تقفز ألسنة اللهب من جديد. غيوم دخان طفيفة تنساق عبر السماء مع الريح. انتشرت رائحة ملابس تحترق. بين الحين والآخر كنا نسمع صوتا لشيء يتمزق فيطير وابل من الشرر.

«سيكون الإنزال في أي يوم على ما أظن».

نخس أحدهم كتب الشفرة بعصا يقرب إياها. ارتفعت ألسنة لهب من جديد وعلا الدخان سميكا أكثر.

«لو صنعنا دخانا كثيرا فسوف نجهز لقدوم الغرامان».

«لن تأتي اليوم. وعموما فهي لم تأت البارحة أيضا».

هذا يعني أن الغرامـان لم تظهـر منذ مقتل المراقب، لا البارحة ولا اليوم الذي قبلها. لم تظهر أي طائرة فعلا، وهذا يعني أن الغزو وشيك الحدوث. ربما تخلى العدو عن هجومه العشوائي ونظم نفسه للعمليات العسكرية. فيما إذا كان إنزالهم بشواطئ فوكياجيما أو مايازاكي، فإن خط التراجع مقطوع هنا بأي حال. حتى لو لجأنا إلى الجبال فليست السلسلة عميقة كفاية لنتمكن من الفرار. كانت هذه تحديدا قاعدة بحرية انتحارية. وبعد مغادرة الضفادع البشرية وقوارب الانتحار في رحلتها الأخيرة لم يعد لدينا ما نؤديه من عمل. ما نوع الأوامر التي سيعطونها عندئذ، خاصة أن الرجال لا يملكون حتى بنادق؟

كنت أرقب الألوان في ألسنة اللهب بتراخ، تبدو شفافة في ضوء النهار. ساد سكون لا يمزقه سوى صوت الحريق. أصوات الرجال الذين يتكلمون تتباعد. خلف الدخان المنسحب تقف بلدة ساكوراجيما كالعملاق. انتابني حس بالسكينة والهدوء وأنا أنظر إلى الجبل. ماذا يهم لو قطعوا خط التراجع لدينا، لأدع التفكير في أي شيء، حتى لو لم أستطع مواجهة الموت هادئا فلأمت موتا حقيقيا. ماذا حدث وكيف تطورت الأشياء في اليابان، بعد دفن جثتي وتحللها لمواد غير عضوية فلن يكون مهما ما يفعلونه بي. لأعش متمهلا هادئا حتى موتي.

«ضابط الصف مور كامي، هل نحرق الصناديق الخشبية أيضا؟».

«نعم، جميعها».

حطمت الصناديق الخشبية وألقيت الواحد تلو الآخر في النار، احتدمت النيران بالوقود الجديد. وضعت يدي في جيبي عرضا فلمست أصابعي شيئا، سحبته خارجا، هو جسم الزيز الميت الذي مسكته منذ أيام، كان جافا وله جناح مكسور. حين قلبته في راحة يدي أصدر قعقعة، فرميته في النار خلسة حتى لا يراه الآخرون. ضاع في رماد كتب الشفرة المتفحمة.

إني أتساءل عن تلك القصص التي وضعها من لم يموتوا بعد، هل يسترجع الإنسان حقا كل حياته لحظة موته، وحتى إن مات الجسد فإن الدماغ يعيش بعده بثوانٍ عديدة يقاسي فيها ألما رهيبا؟ وجه المراقب الميت مسالم، لكنه ليس وجه من تعلم من الموت مفتاح أسرار الحياة الإنسانية. بدا في الموت عاديا، لم يعد يشبه رجلا في الخدمة في شيء بل هو كأي رجل عادي. ولسبب ما تذكرت تلك الياقة المتسخة التي كان يرتديها حين رفعته...

مع الغسق احترقت الكتب تماما. نفضنا الرماد لنتأكد من احتراق كل شيء. حين عدنا للسكن كان كيرا يجلس على الطرف الآخر حاملا سيفه بيد واحدة. يشرب شيئا من القدح، لعله ماء وكحول.

وصلتني رائحته طفيفة.

«هل احترقت كلها؟».

«انتهت كلها ياسيدي».

علقت السترة التي في يدي على السرير وذهبت باتجاه الطاولة.

«أنت هناك!».

أسرع إليه عامل الإشارة الذي ظهر وهو يرتب حقيبته الصغيرة.

«اذهب لغرفة الإشارة، اسألهم إن كانت هناك رسائل عن خطاب جلالته اليوم».

حيانا الرجل مسرعا بمغادرة المخبأ. لم يبق سوانا، أنا وكيرا. حدق بي بطريقته المعهودة ثم تكلم بصوته الأجش:

«سيقومون بالإنزال في أي وقت الآن يامور كامي».

«هل هذا ما بثته الإذاعة؟».

«لا أعرف، لا يوجد تغيير في وضع العدو باليومين أو الثلاثة الأخيرة، وهذا ما يثبت أن العدو يخطط لعمليات موسعة. أظن أنك مستعد للموت، هه؟» وأطلق ضحكة هازئة.

«لو قاموا بالإنزال ماذا يحدث للوحدة يا سيدي؟».

«سنجد مخرجا بالطبع».

«لا أعني الوحدة الانتحارية. أقصد رجال البناء وعمال الإشارة الذين سنخلفهم».

بدا منزعجا فجأة، نظر بعدها في وجهي وهو يصب قدحه:

«سيقاتلون».

«ماذا سنفعل بالسلاح يا سيدي؟ وفوق ذلك يوجد الكثير من الاحتياط والعساكر فوق الأربعين».

«سيقاتل الاحتياط أيضا»، وكأن لهجته مهددة.

«هل تلقوا أي تدريب يا سيدي؟».

صدر عن عينيه بريق شرس وهو يرقبني. لا يجب أن أخشاه، وتصرفت بشكل طبيعي، فحدقت به في عزم:

«لا يحتاجون إلى أي تدريب. سيشاركون كأنهم فرقة انتحارية. ضابط الصف مور كامي، ها أنت في قاعدة لوحدة انتحارية بحرية وما زلت لا تفهم روح الأشياء؟».

«أظن من الأفضل إعطاؤهم بعضا من التدريب عوضا عن حفر حفرة لن تنتهي حتى يعلم الله».

أحسست بالحرارة في جسمي كله، فقد كنت أتكلم بتوكيد شديد. وقف الضابط «كيرا» وقال: «لن أسمح لأحد بانتقاد سياستي يا«موركامي»! حين أحتاج نصيحتك سأطلبها».

غمرني حزن عميق فجأة لم أستطع تفسيره. أحسست كأن شيئا يتحطم داخلي، فانحنيت للوراء أنظر بثبات في عيني «كيرا»، فهدر صوته بي:

«هل تظن أننا سننتصر لو قام العدو بإنزال؟».

«لا أدري سيدي».

«هل تظن سننتصر؟».

«ربما... لكن».

«لكن ماذا؟!».

«هزمت اليابان في «لوزان»، محيت «أكيناوا» تماما، لا يمكن أن تقول إننا سننتصر حتى يحين الأوان».

«صحيح!».

صرخ «كيرا» مقاطعا إياي. صوته كخوار الحيوانات. ثبت فيَّ عينيه بوميض لامع مرعب كالكرة الزجاجية.

«هذا ما سأفعله حين يقوم العدو بالإنزال...، آخذ هذا السيف و...»

ضربت رأسي بقوة قبضة سيفه من يد واحدة.

«... سأقتل كل جبان، واحدا تلو آخر يا «موركامي»، سأقطعهم بالجملة، هل سمعت؟».

حاولت الوقوف لا إراديا، في تلك اللحظة دخل عامل الإشارة العائد من مهمته كالشبح عابرا الممر إلى المخبأ. اتجه إلينا فورا، يلفت انتباهنا، ثم أحنى رأسه للوراء، حيانا بذكاء وتكلم بوضوح:

«البث اليوم كان إعلانا إمبراطوريا، بإنهاء الحرب ياسيدي».

«ماذا؟» صرخت بشكل آلي، نصف ناهض عن الكرسي ويداي على الطاولة.

«كان تصريحا إمبراطوريا يا سيدي بإنهاء الحرب».

سرت في أنحاء جسمي رعدة غريبة، من رأسي إلى أخمص قدمي. شعرت بيدي اليمنى بدأت ترتجف على الطاولة. استدرت ناظرا إلى وجه كيرا. اختفت منه جميع التعبيرات. رأيت شفتيه ترتجفان بدرجة طفيفة، وحين حاول التحدث لم يلفظ بكلمة. فقط انهار على كرسيه. ميزت دمعا ينهمر على خديه.

فاستدرت إلى عامل الإشارة:

«سأذهب إلى غرفة الإشارة فورا، انصرف أنت».

غادرت الطاولة، فقد كنت مهتاجا لدرجة لم أستطع الوقوف بثبات على قدمي. انبثقت داخلي مجموعة مشاعر مشوشة ثم ماتت مرة أخرى. حين بدأت السير نحو سريري، حيث علقت بذلتي، أدركت شيئا كالشبح ورائي، فاستدرت.

تحت النور الكهربي الخافت كان كيرا يجلس بمواجهة الطاولة متكئا على سيفه وهو ينظر بعينين فارغتين للحائط. على الطاولة

قدح فارغ. وكانت غرفة البث في الطرف الأخير من المخبأ ضائعة في الظلام. ابتعدت سائرا نحو سريري. أخذت بذلتي لأرتديها. بالمرة الثانية شعرت بشــيء مبهم يلــح علي من الخلف. استدرت غريزيا.

لم يتغير وضع «كيرا» خلال الدقائق الماضية. كان هو المشهد نفسه، الكابلات الممتدة عبر السطح، القدح على الطاولة، الجدران المتسخة. وضعت بذلتي على كتفي وتهيأت للسير نحو الخروج. حين وضعت ذراعي في الكمين وثبت الأزرار واحدا تلو الآخر، أحسست بالانزعاج من هذا الجو الغريب، فاستدرت للمرة الثالثة وأنا أمسك طرف السرير.

سحب «كيرا» سيفه من غمده بينما لا يزال جالسا وراء الطاولة. قرب نصله من وجهه. التمع النصل السميك يلتقط الضوء الكهربي الضعيف. حدق به كأنه مسحور. هناك جو من الضراوة حول جسمه كله، في الانحناءة للخلف، في العينين الجائعتين كعيون الحيوانات، شاهدت رغبة وحشية لا علاقة لها بهذا العالم. وقفت متكئا على سريري وعيناي مثبتتان عليه. انفعال غريب جعل جسمي يرتجف. أحس بالحفيف الناتج عن اصطدام ركبتي بعضهما ببعض. وقفت بعينين مفتوحتين والوقت يمر، شعرت فيه أن دمي يتجمد.

تحرك «كيرا»، وضع النصل بوميضه المغناطيسي في غمده. سمعت صلصلته تخبط الغمد بوضوح. اخترقني الصوت. أبعد كيرا قبضته عن السيف ثم وقف ناظرا إليّ طوال الوقت. كلمني بصوت لطيف حزين، لم أتزحزح وأنا أستمع إليه.

«موركامي، سأذهب معك إلى غرفة الشفرة»

حين غادرنا المخبأ، كان البحر لامعا بانعكاس وهج المساء. اختفى الطريق في الغسق الذابل. تقدمني «كيرا». فوق الجرف قمة جبل ساكوراجيما تشوبها الشمس الغاربة. وجه الجبل الآن مرئي ومغطى بالشجر حيث أمشي، له هذا الجمال الأثيري تتوجه بقعة تنيرها وتعتمها الألوان، حمراء وزرقاء. بينما أسرع على الطريق الحجري أحاول اللحاق بـ «كيرا»، انهمرت فجأة دموع حارة من عيني. مسحت دموعي مرة تلو أخرى، لكنها كانت تفيض دون توقف. بدت الأرض من بين دموعي مشوهة منفصلة. أطبقت أسناني ومشيت أقاوم ذلك الإحساس الخانق الذي خيم على حنجرتي. ذهني تشوشه الأفكار، وكل شيء قد صار ضبابا. لم أعرف حتى إن كنت حزينا. فقط، عيناي ملؤهما الدموع المرة بعد الأخرى. غطيت وجهي بيدي وأنا أترنح خطوة خطوة في نزولي من الطريق.

زهرة الصيف

تاميكي هارا

المؤلف في سطور

تاميكي هارا Tamiki Hara

- ولد في هيروشيما عام ١٩٠٥.
- تخرج في جامعة كيو وتخصص في الآداب الإنجليزية.
- نشر قصائد وقصصا قصيرة بعد تخرجه، وفي أوائل الثلاثينيات تأثر كثيرا بحركتي الدادية والماركسية.
- كتب قصته «زهرة الصيف» عام ١٩٤٧، بعد أن عاش تجربة القنبلة الذرية التي ألقيت على هيروشيما، والتي شكلت منعطفا كبيرا في أسلوبه.
- نال جائزة تاكي تارو عن هذه القصة. معظم رواياته تعتمد على تجربة القنبلة.
- انتحر عام ١٩٥١ بعد انتهائه من كتابة روايته «موطن الرغبة».

نزلت المركز التجاري في البلدة لأشتري بعض الأزهار وأنا أفكر في أن أزور قبر زوجتي، معي في جيبي حزمة من عيدان البخور التي كنت أخذتها من المذبح البوذي في بيتي. سيكون يوم الأربعاء هو الذكرى السنوية الأولى على وفاة زوجتي، ولكن أشك إن كانت بلدتي ستعيش حتى ذلك الوقت.

على رغم أن معظم المعامل أغلقت في ذلك اليوم لتقنين الطاقة الكهربائية، إلا أنه ما من أحد سواي يتمشى صباحا في الشارع وهو يحمل أزهارا لم أعرف اسمها، لكنها عبارة عن تشكيلة صيفية في جمال ريفي بسيط ولها بتلات صفراء صغيرة.

وبينما كنت أرش الماء على بلاطة القبر التي تتعرض لحرارة الشمس اللاذعة، قسمت الأزهار إلى باقتين فوضعتهما في المزهريتين على كلا الجانبين. ظهر القبر منتعشا أكثر فحدقت في الأزهار والحجر لفترة، فما تحت القبر ليس رماد زوجتي وحسب، بل رماد أبي أيضا. بعد حرق عيدان البخور التي جلبتها، انحنيت لأشرب من بئر قرب القبر، بعدها عدت إلى البيت من طريق منتزه «نيجيستو». ظلت رائحة البخور تعبق في جيبي طوال ذلك اليوم والذي تلاه. في ثالث يوم على زيارة القبر، ألقيت القنبلة. ولأنني كنت في الحمام فقد نجوت. في صباح السادس من أغسطس استيقظت في الثامنة، وكانت صافرة الإنذار قد انطلقت مرتين في الليل ولم يحدث شيء، فخلعت ثيابي قبل الفجر ونمت في منامة لم أكن أرتديها منذ وقت طويل. حين استيقظت لم أكن مرتديا سوى بنطالي القصير. اشتكت أختي الصغرى حين استيقظت متأخرا لكني اتجهت للحمام دون رد.

لم أعد أذكر كم مر من اللحظات. فجأة، حدث انفجار مروع وعم الظلام عيني. صرخت بشكل لا إرادي رافعا يدي فوق رأسي. تلمست طريقي إلى الباب ثم وجدت نفسي في الشرفة. حتى الآن لم أكن أسمع سوى صوتي وأنا أصيح «واه» وسط تدافع الأصوات، فعذبني انعدام قدرتي على الرؤية. حين خرجت إلى الشرفة لاح تدريجيا أمامي منظر الدمار في الغسق، وأدركت الأمر تماما.

بدا المنظر كأنه فصل من حلم كريه. في البداية ضرب رأسي الانفجار، ففقدت بصري وعلمت أني لم أمت. غضبت حين فكرت أن الأمور باتت مزعجة، وكأن صيحاتي لشخص آخر. وبعد أن بدأت أعي الأشياء من حولي بشكل مبهم، صرت كأني أقف وسط حلبة في مسرحية تراجيدية. كأني شاهدت مثل هذا المنظر في السينما. وراء سحب الغبار أخذت تلوح قطع صغيرة من السماء الزرقاء. هلَّ الضوء عبر ثقوب من الجدران واتجاهات أخرى غير متوقعة. وبينما أمشي بحذر شديد فوق الألواح الخشبية حيث نسفت الأرضيات، اندفعت أختي الصغرى نحوي وهي تصرخ: «لم تصب بأذى؟ هل أنت بخير؟ عيناك تنزفان، اذهب واغسل»، أخبرتني أنه لا يزال هناك بعض الماء من صنبور المطبخ.

وجدت نفسي عاريا، فعدت إلى أختي لأسألها: «هل يمكن أن تعطيني شيئا لألبسه؟». أمكنها أن تسحب بنطالا قصيرا من الخزانة التي أنقذت من الدمار. اندفع أحدهم بوجه ملطخ بالدم وهو لا يرتدي غير قميص. كان موظفا في معمل قريب، حين رآني قال: «أنت محظوظ لأنك لا تزال على قيد الحياة»، ثم هرول مسرعا وهو يغمغم: هل من هاتف ... علي أن أتصل». هناك

صدوع بكل مكان، وقد تبعثرت الأبواب والحواجز. أما الأعمدة وعتبات الأبواب فهي مكشوفة بوضوح، وعلى سائر المبنى سكون غريب. أخبروني فيما بعد أن معظم البيوت دمرت تماما في المنطقة، لكن الطابق الثاني الذي يخصني لم ينهار، حتى أرضياته ظلت ثابتة. كان والدي بنّاء حصيفا، وقد بنى منزلنا منذ أربعين عاما بشكل متين.

بينما أدوس على ركام الحواجز، رحت أبحث بين الأشياء المبعثرة عن شيء أرتديه. هناك على الأرض الكتاب الذي تركته بالأمس ولم أقرأ سوى نصفه وقد انثنت صفحاته، كما أن إطار الصورة وقع من على العارضة. وجدت خزانتي بشكل غير متوقع أبدا، وثم وجدت قبعتي. لم أستطع إيجاد بنطالي فأخذت أبحث عن شيء آخر لأستر به نفسي.

ظهر موظف المصنع «كي» من شرفة الصالة. حين رآني صرخ بصوت حزين: «لقد أصبت، ساعدني»، ثم تكوم حيث يقف: ينزف الدم من جبهته بينما تلمع عيناه بالدمع. سألته: «أين؟ «فحاد بوجهه الشاحب المتغضن قائلا «ركبتاي» وهو يضمهما بيديه. جردته من ملابسه، ثم لبست زوجين من الجوارب واحدا فوق الآخر. قلت: «بدأ البناء ينفث دخانا، فدعنا نخرج، ساعدني أن نبتعد من هنا». وبدأ «كي» الذي كان كبيرا في السن وحيويا كالمعتاد قلقا للغاية.

وأنا أنظر من الشرفة، لم أستطع تمييز أي شيء عدا عناقيد البيوت المسطحة والأبنية الحجرية الحديدية قربها. جنب الجدار

المتداعي هناك شجرة قيقب(*) طويلة انشطر جذعها نصفين، وسقطت الأغصان الصغيرة في حوض الغسيل. توقف «كي» فجأة قرب ملجأ الغارات وهو يقول: «لم لا نبقى هنا؟ يوجد خزان مياه قريب من هنا». فجاوبته: «لا، دعنا نذهب إلى النهر، في أي اتجاه هو؟». أخرجت رداء نوم من الخزانة ناولته إياه، مزقت ستارة الملجأ ثم التقطت وسادة. حين أعدت الحصير إلى الشرفة وجدت حقيبة الإسعاف. أحسست بالراحة وأنا أضع الحقيبة على كتفي. ارتفع لهب أحمر صغير من مستودع معمل الكيماويات المجاور لنا فوصل أعلى شجرة القيقب المشوهة تماما.

كانت الشجرة الطويلة تقف بزاوية الحديقة منذ زمن طويل، وكانت مستكن خيالي الحالم في طفولتي. حين عدت أخيرا لأعيش في منزلي بعد غياب طويل، ظل عندي اعتقاد أن ذلك الخيال باق، على الرغم من أن تلك الشجرة لم تعد تثير في نفسي الذكريات الجميلة القديمة ذاتها. كان الغريب أن بلدتي نفسها فقدت جوها الطبيعي الناعم فتحول إلى مزيد من الوحشية وبعض المواد الاصطناعية. في كل مرة كنت أذهب فيها إلى الصالة المواجهة للحديقة يقفز إلى ذهني بشكل عفوي أحداث رواية «سقوط منزل أشر».

تسلقت أنا و«كي» المنازل المهدمة ونحن نزيل العوائق من طريقنا، مشينا ببطء في البداية. وصلنا إلى مستوى الأرض فعلمنا أننا على الطريق، فكان السير سريعا في منتصفه. سمعنا فجأة صوتا ينادي من وراء بناية مهدمة «ساعدوني» وهي تتبعنا

(*) قيقب: شجرة كبيرة مفصصة الأوراق، تنمو في الغابات المعتدلة المناخ.

يائسـة. سـرنا بعض الوقت فـمـررنـا بامـرأة أخـرى تقف وسط الطريق وساقـاهـا متبـاعـدتان، تبكي كطفل وهـي تصـرخ «البيت احـتـرق، البـيت احـتـرق». دخـان يـرتفع هـنا وهنـاك من المنازل المهـدمـة، وصلنا فـجـأة إلى بقـعـة تقـذف ألسنة من اللهب بقـوة.. تجـاوزناهـا مسـرعين فـأصبح الطريق مسـتويا من جـديد. وجدنا أنفسنا بآخـر جسـر ساكاي، هنا يتجمع اللاجئون جـميعـا. صـرخ رجل ألصق نفسـه بالجسـر: «ليطفئ النار من لديه القوة». اتجهت إلى حديقة «أسانا»، وهناك افترقنا أناو «كي».

كـان خـيـزران الأيكة مـحطمـا فـوق الطريق الذي سـارت عليـه أقـدام اللاجـئين. مـعظم الأشـجـار العـاليـة سُـحِقت، والحـديقـة القـديمـة التي تقع على النهـر شُوِهت، بينمـا تقف امـرأة بـدينة في منتصف العـمـر وقـد ارتمى جسمهـا فوق سيـاج الحديقـة مـرتخيـا، وفي وجـهها الخـالي من الحيـاة انبثق شيء لزج. كان أول وجه على هـذا الشكـل أراه، لكنه سـيكون واحـدا من بين وجـوه أخـرى كـثيـرة سـأراها أبشع.

بمحاذاة ضفة النهر لدى الأيكة، مررت ببعض الطالبات اللواتي هـربن من المـعمل وكلهن جـروح طفـيـفـة، لكن يرتجـفن من هـول مـا يحدث أمـام عيونهن، كن يمزحن مندهشـات. ظهر أخي الأكبر في تلك اللحظة، كـان يرتدي قـمـيصـا فقط، وبدا غـيـر مـصـاب، كـان يحـمل زجـاجـة بيـرة في يده. انهـارت المنازل على ضـفـة النهـر الأخـرى وهـي تحـتـرق، لكن أعـمـدة الكـهـرباء لا تـزال واقـفـة. حين جلست علـى الطريق الضـيق بجـانب ضـفـة النهـر، أحـسـست بأني على مـا يرام. مـا كـان يهـددني، ومـا كـان مـقـدرا له أن يحـدث قد

حدث أخيرا، ويمكن أن أعتبر نفسي أحد الناجين، عليَّ تسجيل ذلك، كما قلت في نفسي، لكن بصعوبة عرفت حقيقة الغارة في تلك اللحظة.

اشتدت حدة النيران على ضفة النهر الموازية إلى حد أن وصلت حرارتها اللاذعة إلى الضفة الأخرى، فكان علينا أن نغطس الوسادة في ماء النهر المرتفع ثم نضعها فوق رؤوسنا. يصرخ أحدهم فجأة «غارة» فيندفع الجميع إلى داخل الأيكة.

أرسلت الشمس أشعتها فبدا جانب الأيكة كأنه يشتعل، لفحتنا نار ساخنة وطار دخان أسود تجاه منتصف النهر. اسودت السماء فجأة فأسقطت قطرات كبيرة على شكل سيول جارفة. خفض المطر درجة الحرارة، بعدها صفت السماء ثانية.

مشيت على طول جسر محصب إلى أسفل حافة الماء، فاكتشفت صندوقا خشبيا يطفو عند قدمي وقد تناثرت حوله حزمة بصل. سحبت الصندوق إليَّ لألتقط البصل وأعطيه للناس على الضفة. كان الصندوق من قطار الشحن الذي انقلب من الجسر على النهر. حين التقطت البصل سمعت صوتا يصرخ: «النجدة»، كانت فتاة في مقتبل العمر تتشبث بقطعة خشب وهي تتجرف إلى وسط النهر، تطفو أحيانا وتغوص أحيانا. تناولت قطعة الخشب ساحبا إياها نحوي. وعلى رغم أني لم أسبح منذ وقت طويل فقد نجحت في مساعدتها بسهولة أكثر من المتوقع، خمدت النار على الضفة الأخرى فترة ثم راحت تفور ثانية. خلال ذلك اختلط الدخان مع اللهب الأحمر فتمددت كتلة عكرة جعلت حرارة النيران تزداد كثافة كل ثانية. لم تخلف النيران وراءها أخيرا سوى الهياكل. أحسست عندها بجدار

مموج من الهواء يندفع فوق الماء، هل هو الإعصار؟ وعلى رغم الأفكار التي خطرت ببالي فقد هبت الريح على رؤوسنا واهتز لها العشب والأشجار، فاقتلعت بعضا من الأشجار برمتها عاليا في الهواء.

حين انتهى الإعصار، تبين أن المساء بات قريبا، ظهر أخي الآخر على غير توقع، قميصه ممزق من الخلف وعلى وجهه أثر بلون الحبر الهندي، تحول فيما بعد إلى قيح من الحرق. أثناء عودته من العمل إلى البيت رأى طائرة صغيرة في السماء ثم ثلاث ومضات غريبة. بعد أن ارتمى في الأرض، هرع لينقذ زوجته والخادمة اللتين تجاهدان تحت المنزل المهدم. سلم طفليه إلى الخادمة وجعلها تهرب بهما قبله، قضى بعدها وقتا طويلا لينقذ العجوز الذي كان بجواره.

مشيت وأخي عكس التيار نبحث عن مركب. كانت الشمس الغاربة تجعل كل شيء حولنا شاحبا. فوق الضفة وتحتها هناك بشر شاحبون، كذلك يطرحون ظلهم في الماء. حين مررت أمامهم كلمونا بصوت فيه لطف وضعف قائلين: «أعطونا قليلا من الماء».

ناداني أحدهم بصوت حاد يرثى له. رأيت على الأرض صبيا عاريا طمر جسمه الميت في الماء، بينما تجثم امرأتان على الدرج المحصب قرب الجثة وقد تورم وجهاهما في تشوه بشكل بشع، شعرهما المحروق المشعث - فحسب - دل على أنهما نساء، ارتعدت من إحساسي بالشفقة وأنا أنظر إليهما. وجدنا طوقا صغيرا ربطنا به حبلا وجذبنا باتجاه الضفة المقابلة للنهر. حين وصل الطوق إلى الرمل على الشاطئ في الجانب الآخر، حل الليل وازدحمت المنطقة بالمصابين من البلدة. قال لي الجندي الذي

يجثم قرب النهر: «دعني أشرب بعض الماء الدافئ». جعلته يتكأ على كتفي ومشينا سويا. وبينما كان يترنح على الرمال، همهم الجندي «ذلك أفضل من الموت». فتركته ينتظر جنب الطريق.

قرب محطة التزود بالماء، شاهدت رأسا ضخما محروقا يشرب بطيئا من ماء ساخن دون كوب. بدا الوجه الكبير كأنه جبل من فول الصويا، بينما احترق الشعر فوق الأذنين على شكل خط مستقيم. ملأت كوبا ثم أخذته للجندي.

بدأ الناس يطبخون عشاءهم بحرق قطع خشبية على الشاطئ الرملي. بعد أن أخذ المد يرتفع انتقلنا جميعا إلى الضفة. هبط الليل وهب النسيم، الجو بارد حيث لم نستطع النوم، كما ظلت تتوارد إلينا صرخات اليأس هنا وهناك تطلب الماء.

حديقة نغتسو قريبة لكنها الآن غارقة في الظلام كان بإمكاننا أن نرى الشجر الحطيم بشكل باهت فقط. استلقى أخي بتجويف في الأرض، بينما اتخذت مكانا آخر ضحلا، قربى استلقت ثلاث أو أربع طالبات مصابات. قالت إحداهن «بدأ الدغل يحترق»، أليس من الأفضل أن نبتعد؟». وبينما كنت أنهض من الحفرة، رأيت ألسنة اللهب ساطعة بأعالي الأشجار أمامنا، لكن لا توجد علامة على وصول النار إلى بقعتنا، لا بد أن هناك صفارة إنذار سليمة في أحد الأماكن لأننا سمعنا صوتها يتهادى إلينا من بعيد.

اشتكت إحدى الفتيات المصابات قائلة «لكم أتمنى مجيء الصباح»، ثم تناهى إلينا صوت شاب ينادي من اتجاه النهر: «ماء، ماء، أرجوكم، أمي، أختي ماتت»، وبدا أنه يحتضر بأنات من الألم واللهاث الضعيف، الذي ظهر كأنه ينزع جسمه برمته.

أُسس مستوصف قرب ضريح «توشوغو»، وكان البوليس يسأل المريض رسميا عن مكان إقامته الدائم وعمره، ويظل المريض بعد تسلمه ورقة الهوية ينتظر حوالى ساعة ضمن صف طويل تحت أشعة الشمس الحارقة. إن المرضى الذين بمقدورهم الانضمام إلى ذلك الصف كانوا أوفر حظا من الباقين. أخذ أحدهم يصرخ غاضبا: «يا جندي، ياجندي» كان صوت فتاة صغيرة تحترق بشكل مرعب وهي تدور حول نفسها من الألم جنب الطريق. قربها رجل بلباس قوات الدفاع الجوي يتشكى بصوت واهٍ: «ساعدوني أرجوكم، آه، ممرضة، طبيب»، ثم ألقى برأسه غائصاً في الحصى فاتحا فمه المسود. لم يعره أحد انتباها، جاء رجال البوليس والأطباء والممرضات من مدن أخرى لكن عددهم محدود.

تحت شجرة كرز استلقت طالبتان من المدرسة وهما تئنان طلبا للماء بوجهين مسودين من الحريق، بينما كُشِفت كتفاهما تحت أشعة الشمس اللاذعة. كانتا من مدرسة التجارة للبنات، وبالقرب منهما كانت امرأة بوجه محروق تضع حقيبة يدها وتمد ساقيها في كسل لا تشعر بوجود الفتاتين المحتضرتين.

انقضت الليلة التالية. قبل الفجر انطلق صوت مجهول بابتهالات بوذية، صوت يتوقع أن الناس ماتوا من فترة. عند ارتفاع شمس النهار توفيت الفتاتان، وبعد أن أنهى الشرطي فحص الجثتين مددهما بوجهيهما للأسفل في الخندق، ثم أقترب من المرأة الميتة جنبهما. فتح حقيبة يدها فوجد دفتر شيكات وسندات قروض، لقد كانت لا تزال تلبس بذلة السفر التي احترقت بها.

انطلقت صفارة الإنذار ثانية حوالى الظهر وسمع هدير

الطائرات. على رغم أني تعودت البشاعة والبؤس حولي، فإن تعبي وجوعي تفاقما أكثر وأكثر. مات الناس واحدا بعد آخر.، وتركوا جثثهم على حالها. كان الرجال يسيرون دون أي أمل في النجدة.

ارتفع صوت البوق يائسا من المنتزه، ظهر في اللحظة نفسها أخي الأكبر. في اليوم السابق توقف في «سوكايتشي» حيث أخلت أخت زوجته منزلها واستأجرت عربة. قرر كلانا مغادرة المكان، فبحثنا عن أختنا وأخينا الثالث، ثم بدأنا رحلتنا ما وراء مدخل حديقة «آسانو». لفت نظر أخي جثة في قطعة أرض مهجورة باتجاه أرض المنتزه الغربي، كانت ترتدي بنطالا أصفر نألفه، ذلك ابن عمي «فوني هيكو». اندفق سائل من انتفاخ في صدره بحجم القبضة، بدت أسنانه البيض باهتة في وجهه المسود، وقد ثنى أصابع يديه للداخل وأظافره مثقوبة حتى الجلد. استلقت بجانبه جثة طالب مدرسة، بجانبها جثة امرأة شابة. كانوا يستلقون متباعدين وهم يتصلبون في وضعياتهم المهملة. نزع أخي الثاني حزامه كتذكار، واضعا بطاقة باسمه عليه، غادرنا المنطقة، مرت بعدها العربة على كنيسة «كوكو تايجي» وجسر سوميوشي، وصلنا إلى «كوي»، حيث اطلعت على المواقع المحترقة لأكثر الأحياء نشاطا. وسط ذلك الامتداد الهائل للموت الهاجع تحت أشعة الشمس كانت هناك الطرق والنهر والكسور والجثث العارية المتخشبة والمنتفخة، وقد تصلبت أوصالها بعد صراع لحظة الاحتضار الأخيرة؛ فاتخذت نوعا من الانسجام المتلازم. تجسد في أسلاك الكهرباء المبعثرة بالمباني الخربة تصميم متشنج على العدم. أما منظر الترام المحترق وهو منقلب، وهناك حصان بطنه

منتفخ إلى الأرض، فقد منحني انطباعا عن عالم في رسوم السوريالي سلفادور دالي. شجرة الكافور الطويلة في فناء الكنيسة مجتثة، وشواهد القبور مبعثرة، أما مكتبة آسان فقد تحولت إلى معرض للجثث في هيكل خارجي. لا تزال الشوارع تدخن هنا وهناك برائحة الجيف النافذة. كانت انطباعاتي عن المشهد تتطابق تماما مع ما جاء في كتب الأغاني البسيطة «كاتا كانا»:

إيقاع الأجساد الغريب
ملتهب وأحمر
يشتبك هذا مع الخراب الفاضح
وجمر الأبيض الرمادي
في المشهد الشاسع
هل هذا ما حدث أو
ما يمكن أن يحدث؟
آه، تجرد العالم كله في لحظة
يلمع بطن الجواد منتفخا
بجانب سيارة انقلبت.

هناك رائحة النتن بالسلك المدخن. فتقدمت العربة على طول الطريق اللانهائي عبر الحطام. حتى في ضواحي المدينة جميع البيوت انهارت، وبعد أن مررنا بـ «كوساتو» تحررنا أخيرا من شبح الكارثة، حيث رحبت عيوننا بمنظر العشب الحي. أعطى مظهر اليعاسيب التي تتنقل مسرعة فوق حقول الأرز الزمردية انتعاشا مؤثرا في عيني. من هناك امتد طريق ممل طويل إلى قرية «ياواتا». هبط الليل عند وصولنا فكان كل شيء هادئا بشكل موحش.

في اليوم التالي بدأت آثار الكارثة تظهر في حياتنا البائسة. فالجرحى لم يتعافوا، ومن كانوا أقوياء بالبداية أصيبوا بالوهن نتيجة للنقص في الطعام. أخذت يد خادمتنا تفرز قيحا مريرا، واجتمع الذباب على الجزء المحروق الذي غزته الديدان، ولم ينفع تعقيمنا المستمر لمنطقة الحرق، فلم تتوقف الديدان عن غزو الجرح؛ فماتت الخادمة بعد أقل من شهر.

بعد أربعة أيام أو خمسة من تحركنا باتجاه القرية، ظهر ابن عمي فجأة، الذي رأيته آخر مرة وهو في طريقه إلى المدرسة. في ذلك اليوم رأى الوميض من داخل صفه بالمدرسة، التي دمر مبناها فيما بعد. في لحظة اختبأ تحت الدرج وطمره السقف المنهار، لكنه زحف مع أربعة أو خمسة طلاب فنجوا، أما الباقون فماتوا في الهجوم الأول. ركض الناجون نحو هضبة هيجي، أما ابن عمي فتقيأ سائلا أبيض على الطريق. ذهب إلى بيت صديق نجا فالتجأ هناك. بعد أسبوع من عودته كان شعره يتساقط وأنفه ينزف، أعلن الطبيب أن حالته حرجة، لكنه استرد قوته من جديد.

عانى صديقي تجربة مختلفة: كان في طريقه إلى أحد المعامل ودخل قطاره نفقا، حين خرج القطار رأى ثلاث مظلات تهبط من الجو فوق «هيروشيما» على بعد بضعة أميال، عند وصوله إلى المحطة التالية اندهش لانكسار زجاج النافذة، ومع الوقت علم بما حدث وانتشرت المعلومات بالتفصيل، فعاد في أول قطار إلى هيروشيما. كانت القطارات تمتلئ بالجرحى المشوهين بشكل بشع. لم ينتظر في وصوله للمدينة أن تخمد النيران فتقدم على طريق الإسفلت الساخن. اتجه في البداية إلى مدرسة البنات العليا حيث

تدرس زوجته. انتشرت جثث الطالبات في كل الصفوف، أما جانب مكتب المدير فكانت جثث الذين يخصون الإدارة. لم يستطع تمييز جثة زوجته فأسرع عائدا إلى المنزل فوجده انهار لقربه من أوجينا، لكنه لم يحترق. لم تكن زوجته هناك أيضا. أخذ يتفحص جميع الجثث الملقاة على جانب الطريق الممتد من منزله إلى المدرسة، معظم الجثث منطرحة على وجوهها فكان لا بد أن يقلبها بيديه ليتفحص. كل امرأة تغيرت بشكل مرعب، لكنه لم يجد زوجته أيضا. أخذ يتجول على غير هدى، وأخيرا، رأى عشر جثث مكومة في حوض.

هناك ثلاث جثث متخشبة، ووقف آخرون في طابور بانتظار الباص، وأظفارهم تنغرس في أكتاف من أمامهم، أما منظر حديقة المنتزه الغربي فكان فوق التصور، فقد تكومت هناك جثث الجنود. لكن جثمان زوجته لم يظهر بأي مكان.

زار صديقي الثكنات كلها وحدق في وجه الجرحى المحتضرين. لكن بينهم لم يعثر على زوجته. استمر يفتش ثلاثة أيام بلياليها ما بين الأجساد المتفحمة، الحية منها والميتة، بعدها عاد إلى الموقع المشتعل بمدرسة زوجته.

عظام

فوميكو هاياشي

المؤلفة في سطور

فوميكو هاياشي Fumiko Hayashi Bones

- ولدت في هونشو ١٩٠٤
- تنقلت بين مدارس كثيرة في فترة صباها، ثم انتقلت إلى طوكيو بعد تخرجها فتقلدت العديد من الأعمال.
- شاركت الفوضويين أنشطتهم، لكنها استمرت في كتابة روايات السيرة الذاتية.
- تتسم أعمالها بعاطفية غنائية عالية.
- نشرت «عظام» عام ١٩٤٩، وهي أفضل القصص التي تمثل كتابتها.
- كتبت رواية «يوميات التجوال» ورواية «الأقحوان» التي نالت عنها جائزة المرأة المبدعة، وهي رواية تلتزم المنحنى الواقعي.
- توفيت عام ١٩٥١ ولم تكمل روايتها الأخيرة «أرز».

«ولماذا تنظر القذى الذي في عين أخيك، أما الخشبة التي في عينيك فلا تفطن لها؟»

(إنجيل متى، الإصحاح السابع، ٣)

«أعد لي العظام، أرجوك».

فكرت «متشيكو» أن ذلك يبدو غريبا، ماذا ستفعل زوجة وزير الحكومة بعظام تؤول إليها؟ أحكمت إغلاق عينيها، فبدأت دموع حارة تتجمع في الزوايا. ربما برهن وضعها الحالي على أنها قد تحولت إلى وحش حقيقي من دون قلب. لكن، ألم تتغير حياتها تماما منذ عودة صندوق عظام زوجها فارغا؟ والمثير للدهشة أن أحدا لم يبد في الواقع أي اهتمام حين بلغته القصة. وبعد قراءة الورقة التي التمست فيها زوجة وزير الحكومة سابقا أن تستعيد عظام زوجها، بعد شنقه كمجرم حرب، رغبت فجأة أن تنفطر بالبكاء. في الليالي المطيرة، كانت «متشيكو» تلتقط الرجال من الطرقات.

«واحد، اثنان، ثلاثة» أخذت تعد وهي تحدق بثبات نحو المحطة. وحين يقترب منها أحد تود لو تصرخ فيه «انتظر! أريد منك بعض العظام!».

من وقت لآخر، يتملص منها الرجال النحيلون كالأشباح في المحطة. تصر عظامهم كلما ساروا تجاهها. تدنو عيونهم المضيئة منها وتشع بألق، وما حدث في أول يوم تكرر مرارا. تلك كانت التجربة الأولى لمتشيكو ولا تُنسى.

يومها سأل الرجل: «كم تريدين؟».

ارتبكت وهي تقهقه كثيرا فراحت تضغط بظهر يدها على شفتيها. عندما أدركت أخيرا أن ذلك يعني سعر قضاء الليلة معها، أخذت المنطقة المحيطة بخصرها تتخدر، سارت مع الرجل كأنها في دوار. كانت تفوح منه رائحة دواء. أخذته للفندق الذي أراها إياه «ران شان»، فهو أكثر حنكة.

خلال دقائق قليلة تلت مرورهما عند مسرح «موشينو»، حيث تتصيد نادلات المقاهي الزبائن، استردت متشيكو شجاعتها بالتدريج. هل يمكن أن يكون الهلال الرقيق، فوق الجرف المواجه، قد استثار فيها هذه الرعشة؟ تمشي بين أعمدة الإنارة على جانبي الطريق، ومن حين لآخر تتعثر قدماها في الرصيف الوعر.

كانت تصلي في سرها وهي تنظر نحو القمر اللامبالي. خفت رائحة الدواء ففكرت: «لا بد أنه طبيب»، ثم مر وقت طويل قبل أن تسنح الفرصة لينظر أي منهما إلى الآخر عن قرب.

حين اقترب أكثر، سبب ملمس معطفه إحساسا لاسعا بظهر يدها. هبت ريح محملة برائحة سمك من الجرف، كأنهما اقتربا من بحيرة كبيرة. ميزت «متشيكو» العديد من الأصوات في الظلام، فاهتزت الأرض تحت الجسر الصخري من صرير القطارات العابرة.

سألها: «ألم نصل بعد؟».

ردت: «لا».

«هل هو فندق؟».

«نعم».

ولسبب غير واضح، توقف الرجل قليلا وهو ينظر خلفه. وكلما اقترب أحد ينفصل عنها ويتقدم مخفضا قبعته على وجهه، أخافها تصرفه هذا، لكنها سارت بتمهل على مسافة منه. هيئته مزرية من الخلف. بدا الجرف الصخري في الظلام أشبه بكومة أسمال بالية. دارت بحدة وهي تصعد السلالم المحصبة الملتوية في غير استواء. وحين أدرك الرجل خطأه، عاد من حيث أتى صاعدا خلفها وهو يلهث.

وصلا شارع «أومي» فكان القمر الذي أمامهما يشع عاليا فوق بحر «نيون» أعمدة الطريق. من هنا استطاعت أن ترى مدقات «كيو لاين»، متموجة كأصابع الأكسلفون. تثير القطارات عواصف الغبار أثناء مرورها. يصلهما هديرها المشؤوم على شكل موجات، مترددا مثل نداء الموت من الجحيم.

خفف رفيقها من سرعته مقتربا وهو يقول: «قولي بصراحة، كم تريدين؟».

أخفت «متشيكو» أنفها بالشال في خجل وردت: «لا أعرف، فهذه هي المرة الأولى لي».

«حقا؟ المرة الأولى لك؟ تكذبين».

توردت فجأة المنطقة المحيطة بصدرها، فمسحت أنفها في لطف بشالها القرمزي.

قال بلهجة تحبب: «تبدين فتاة جميلة».

عطست برفق مرتين وتمخطت بزاوية الشال. في السماء المعتمة تشكلت طبقات رقيقة وطويلة من زيد الغيوم. بعد عبورهما الشارع العريض، هبطا ثانية أسفل منحدر مظلم واتجها ناحية

كوخ البلدة في «هنودي تشو». عندما وصلا أخيرا فندق كيكوبا، الذي زارته بالأمس، كانت تقف جوار الحائط عرية طفل وامرأة بمئزر أبيض جانبها تنظر بفتور وعدم ارتياح. إن الخادمة التي قابلتها البارحة نشيطة، فقد قادتهما نحو غرفة مظلمة بظهر الطابق الثاني.

كانت الألواح الخشبية في الغرفة تمتلئ بالثقوب التي تصر عاليا وهما يمشيان عليها. والجدران يزينها الأقحوان المعلق بإهمال على الباب الانزلاقي.

نادتها الخادمة مباشرة إلى الصالة، سألتها «قولي لي، هل قبضت؟».

ردت «متشيكو»: «لا، لم أقبض».

«عليك أن تقبضي أولا. «ران شان» هنا الآن. هل ستمضيان الليل معا؟».

«لا أعرف».

«عليك إذن أن تدعيه للبقاء هنا واطلبي له شرابا. كوني طيبة. سأترك الشراشف في الصالة. وعلى كل حال، خذي المستحق واعرفي إن كان سيقضي الليل هنا، فيجب أن تدفعي للمحاسب.

«أجل».

لفت «متشيكو» الشال الداكن عليها بإحكام ثم دخلت الغرفة. وجدت الرجل يقف وقد أمال قبعته الرمادية إلى مؤخر رأسه. هو أصغر مما توقعت، وعلى عكس انطباعها السابق بدا أكثر طولا، وكان نحيلا. نظر إلى ساعة معصمه، سألها: «هل سنمضي الليل هنا؟».

ارتاحت «متشيكو». كورت فمها بيدها وابتسمت في شحوب. بدا الرجل سعيدا بنفسه، أمسك يدها فبعث ملمس يديه الدافئتين الرطبتين فيها شعورا بالوضاعة.

قالت: «علي أن أعطي النقود للمحاسب».

أدرك الرجل ورطتها. جلس القرفصاء على حصير القش الخشن ثم أخرج محفظة بالية.

سألها: «كم؟».

قطبت «متشيكو». على رغم أن «ران شان» أخبرها أن تنال أكبر مبلغ يمكن تحصيله، إلا أنها لم تجد في نفسها قدرة على الحديث بأشياء كهذه. سمعت صوت الشراشف وهي توضع في المدخل. عد الرجل عشر أوراق نقدية من فئة المئة ين ووضعها في يدها.

سألته: «على فكرة، هل ترغب في شراب؟».

«أريد فقط زجاجتي «ساكي» وبعض الفول السوداني».

راحت إلى المدخل، مشت فوق الشراشف ونزلت الدرج إلى المحاسب، فأخذ ست أوراق نقدية منها. في رجوعها، قصدت المرحاض. هناك فتاة بقميص داخلي ومعطف ملقى على كتفيها، شعرها المحلول يتمايل. بدت كأنها مطرودة من المرحاض. صفقت الفتاة بالمرحاض، ثم تجاوزت «متشيكو» ومشت باتجاه الردهة. فاحت رائحة عطر منعش يشبه القرنفل، فاختلطت مع آثار العطر الكريه الذي خلفته الفتاة.

أخرجت «متشيكو» الأوراق النقدية من جيبها وعدت أربعمائة. كانت على وشك البكاء ففتحت النافذة الصغيرة للحمام وهي تأخذ نفسا عميقا. خلال تلك اللحظات القصير، تدافعت

ذكرياتها جميعا على شكل سيل جارف. مصابيح السيارات تضيء زجاج النافذة بشكل ساطع ثم إلى بعيد فجأة.

لا بد أن هناك طريقا عموميا هنا من تحت. وضعت كلتا يديها على عتبة النافذة المتسخة وهي تسند ذقنها، بكت بمرارة وهي تستنشق برودة الهواء، حاولت التفكير في زوجها الميت، وبعدها ظنت أن وضعها الحالي لا مفر منه.

همست لنفسها: «لا بد أن هناك طريقا آخر...».

أكدت «متشيكو» يجب أن يكون هناك طريق آخر، لكنها لا تجد العزم للبحث عنه. مرت أمامها صور والدها و«اميكو» ورنجي كالبطاقات الملونة. بعد انتهائها من البكاء، أحست أن حالتها تحسنت. سحبت علبة تجميلها وضغطت القطيفة الباهتة بقوة حول عينيها المحمرتين.

حين صعدت الدرج وجدت الرجل والخادمة يتهامسان، كان يصب الساكي لنفسه في كوب على صينية، وبعدما غرفت الخادمة ثلاث أو أربعمائة ين، دفعتها «متشيكو» لتخرج.

قال الرجل: «هل تشربين؟».

ردت «لا».

كومت الشراشف في إحدى الزوايا. ربما صورة الفتاة الجميلة على الجدار نسخة مطبوعة. كانت تقف نحيلة ويدها في شعرها، ومن الحاشية المغضنة لثوبها امتدت ساق نحيلة من تنورتها الداخلية القرمزية.

هناك نافذة وحيدة، وتسمح الجدران الخضراء الرقيقة بسماع كل شيء من الجانب الآخر، هناك حرق جزئي بحصيرة الغرفة

الصغيرة، أما سلك البعوض فكان على إفريز النافذة.

قال: «ياله من ساكي فظيع».

أجابت «حقا؟».

«من المحتمل أنهم يجمعون المال من جراء خلطه مع الماء».

«هل هذا صحيح؟».

«كم عمرك؟».

«أظن أني أكبر منك بكثير».

«دعيني أُخَمِّن».

«حسنا».

«خمس وعشرون».

«كلا، ست وعشرون».

«تبدين أصغر».

«هل تعتقد ذلك؟».

«هل أنت أرملة؟».

«كلا ...».

«لا تقولي إنك لم تنامي مع رجل قبل الآن».

«حسنا ... في الواقع، كنت متزوجة».

«هل مات في الحرب؟».

«نعم».

أنهى الرجل زجاجة وبدأ الثانية.

فجأة سمعت من الغرفة المجاورة صوتا أجشّ لامرأة تصرخ: «كفّ عن ذلك! أنت تدغدني».

حينما أمسك الزجاجة بيده، رفع الرجل رأسه دون ابتسام. شرود ذهنه جعل تعبير وجهه مخيفا. ذكّرتها ذقنه الطويلة بإعلان قديم لصابون كاو. لم تستطع «متشيكو» أن تقرر بشأن قضاء الليل معه، شعرت بتوتر، فأخذت تحرك إبزيم حقيبة يدها المعدني البالي بعصبية.

فجأة، أخذت تفكر بالمرأة صاحبة المئزر الأبيض الواقفة جنب عربة الطفل وهما يدخلان. كم هو غريب أن تتذكر ذلك الآن. شيء سخيف. للمرأة وجه فارغ. ربما كان وجهها ضبابيا نوعا ما، لأن انتباهها تركز على المئزر الأبيض في الظلام. خلق المشهد عندها انطباعا عميقا، حيث تشبه العربة تلك التي كانت تستخدمها يوما لابنتها اميكو. صار عندها هاجس غريب أن هذا المشهد سيعود يلازمها في المستقبل.

ارتطم بالدار شيء على الجانب الآخر. وبرأس منحن، خطّت بإصبعها أحرفا عشوائية على ركبتيها. لم تستطع مقاومة ذلك الشعور المتنامي بأن جسمها كله قد تحول إلى قطعة ثلج، مما كان يضايقها، أغرق روحها إحساس بعذاب عميق ينز من رؤوس أصابعها كدموع ألم مبرح. مطلوب منها شجاعة وصلابة كي تتحمل هذه الليلة. تجمدت في حلقها تنهيدة عميقة معتمة.

سأل الرجل: «كيف وجدت مكانا كهذا؟».

ردت «أخبرتني به صديقة».

نخر الرجل فحسب. كان واضحا عدم اهتمامه بشؤونها الشخصية.

وكونها نحيلة الجسم، فإن ركبتيها أيضا بالغتا الصغر. وهي تجلس بدت أقرب إلى طالبة مدرسة، لها رقبة نحيلة ووجه صغير.

سأل: «ما سبب تلك الندبة على رقبتك؟».

وكانت الندبة هناك بطول بوصة منتفخة على رقبتها النحيلة.

«وأنا صغيرة أصابني التهاب بالغدد اللمفاوية وأجروا لي عملية».

سألته: «هل أنت طبيب؟».

ارتسمت على وجه الرجل ابتسامة عريضة أظهرت أسنانه القبيحة للمرة الأولى.

أجاب: «هل أبدو منهم؟».

قالت: «نعم».

ظل الرجل يراوغ في هذه المسألة. لم يكن يحمل أي حقيبة. شرب الساكي باستخفاف، ثم أخرج علبة دخان «السلام» من جيب سترته وأشعل واحدة بقداحة.

اقترح: «من الأفضل أن نستعد للنوم».

سألته «كم الساعة؟».

«بعد العاشرة بقليل».

كان جوابه جافا وموضوعيا بحيث قطع عليها الفرصة لإبداء أي مبادرة ودية.

عندها بدأت تمد الشراشف في غير إتقان، وقف الرجل ليذهب إلى الحمام. مدت الأغطية المنشاة بشكل رديء، ثم وضعت اللحافين بالأعلى. كان الحرير الصناعي الأخضر المطرز على اللحافين منحلا في العديد من المواضع، كما برز حشو القطن.

حين عاد الرجل فتح الباب الانزلاقي على مصراعيه.

سألها: «أليس الجو باردا؟».

وضحت قائلة: «ذلك بسبب عدم وجود ستائر على الجدران».

ودون إظهار عاطفة، خلع سترته وبنطاله ثم نزع ربطة عنقه، أزال قميصه الصوفي الرمادي وقميصه الداخلي الأبيض. انسل بين الأغطية، وهو يقول: «اللعنة على هذا البرد! ضعي أغراضي كلها أعلى السرير»، رفع رأسه مشيرا بذقنه: «وأثناء ذلك اقفلي الباب».

«أجل».

وضعت متشيكو منفضة دخان زجاجية قرب وسادته. السيجارة التي بدأ تدخينها انطفأت وهي تحتفظ بالكثير من طولها الأصلي. بعد أن أغلقت القفل الصدئ ألقت ملابسه المتناثرة بحرص على القسم المنحني من السرير، وأخذت تنبش حافة اللحاف بعصبية. وتوقف قلبها عن النبض وغلب عليها شعور بالغثيان التام.

استعادت قصيدة زوجها «سترم» التي كانت تقرأها وهي طالبة: «اليوم، اليوم فقط ...» ونسيت السطر التالي، لكنها تذكرت الباقي جيدا:

«واحسرتاه، غدا، غدا-
سينقضي كل شيء
فقط هذه الساعة،
أنت ملكي.
أن تموت، حسرتاه لو مت -
سأموت وحيدا».

كانت «متشيكو» تحبها كثيرا، لأنها أرسلتها في رسالة لزوجها، الذي كان يومها بالخارج. كتبت كذلك «إن مت، سأنتحر وأختي ونلحق بك». كل مرة كانت تسمع فيها هذه الكلمات «بيان بوتسدام»، تفكر بسيرة «سترم»، وتذكر كيف غادر مسقط رأسه هاسوم ذاهبا إلى بوتسدام، صار مساعد قاضٍ في محكمة عسكرية. كانت على يقين تام بأن بوتسدام هي المكان الذي عاش فيه سترم. لم يكن لديها اهتمام خاص بالأدب. لكن صديقاتها في المدرسة لديهن هذا المنحى، ومن الكتب التي قرأتها أحيانا، وقعت مصادفة على هذه القصيدة لشاعر ألماني وأغرتها كثيرا.

تجاهلت موضوع السروال الداخلي البارز من اللحاف.

«يا إلهي! ما هذا البرد، هيا ادخلي نتدفأ».

بعد دعوته هذه، أخذت أسنانه تصطك عمدا.

خلعت معطفها وجوربها ثم أطفأت النور. بالظلام المطبق، اجتاح جسمها بأكمله البرد فجأة. ليس ذلك بفعل البرد فقط، وإنما متشيكو بدأت ترتعش.

كرر الرجل: «هيا، ادخلي بسرعة!».

بقيت متشيكو مستيقظة طول الليل، شاهدت بزوغ الفجر. أما الرجل فنائم على معدته يشخر بصوت عال. وضحت البقع على السقف تدريجيا. كل ذلك كان ضمن الجدران الأربعة. بدأت قدما الرجل الخشنتان تزعجانها. ينامان ظهرا لظهر بسبب البرد. بحثت عن تنورتها التحتية بقدميها، قربتها، وهي تدس كلتا قدميها فيها بينما لا تزال في الفراش.

أفلتت تنهيدة من حلقها «آه»، كانت تحس بفظاعة الذنب. أخذت تحدق بفراغ في الزجاج المتجمد وهو يسطع باللونين الأزرق والأخضر، شعرت كأنها تسأل ربما إن كان هذا قدرا بشريا.

تقلب الرجل، وتحسس طريقه بإحدى يديه فأحاط جذعها. الروح التي أحست بالوحدة، بدأت تنشر جناحيها بحرية أكثر من الليلة السابقة. أخذت بلطف يدها بيده. فكرت: كم هو مريح أن يكون بجانبها أحد ما. في الحقيقة، لم تشعر بأي حب خاص نحوه، لكنها اعتادت عليه خلال هذه الفترة القصيرة، بقيت يده دون استجابة.

وفورا رأت عرية الطفل والمرأة الواقفة بمئزرها الأبيض الهفهاف بفعل الريح الباردة.

من زمن بعيد، قضت وقتا شبيها مع زوجها، شعرت بذلك الندم الذي يجعل الأذنين تطنان.

مسحت «متشيكو» بيدها اليمنى الدموع التي سقطت على الوسادة، واحتضنت بالأخرى ذراعه الكبيرة العظيمة. استنتجت أنه من السهل أن يحط المرء من قدر نفسه، وأحست بالعبء ينزاح عن كتفيها. وعن قرب أعلن الديك طلوع الفجر.

أصدر الرجل صوتا ضعيفا وهو يئن، على ما يبدو تحت وطأة كابوس. حدقت متشيكو في الجدار وعيناها مفتوحتان على وسعهما. ذكرها الصوت بأحد الأشخاص وقد دفن حيا. شعرت كأنها تنام وفي نومها تحمل شخصا شديد المرض على ظهرها. لم تكن تحس بالخزي، فالرجل قد خلق كحيوان متوحش.

حاولت «متشيكو» أن تقنع نفسها بأن الخطأ خطؤها، فقد حاولت أن توقف مستقبلها كله لأجل حقيقة واحدة، هي تصميمها على إخلاصها لزوجها. لكن موته جعلها تسقط إلى هذا المستوى. كانت، بشكل طبيعي، تعي تماما خطورة إثمها، على رغم محاولتها إقناع نفسها بأنها سمحت باستخدام جسمها بغرض المال فحسب.

تألق الندى على زجاج النافذة، انعكس بشكل رائع، فبدت كأنها تمطر.

استيقظ الرجل بسبب صراخه قائلا: «ياله من حلم مريع».

حين لمس شعره مؤخر عنقها أحس بالبرد.

سألته: «أي نوع من الأحلام كان؟».

«آه، كنت أقتل جنديا، قتلت رجلا يحتضر ... قليت لحمه وأكلته ...».

«ذلك مرعب، هل أنت تحارب في الخارج؟».

«أجل، منذ ست سنوات».

«هل قتلت أحدهم؟».

«كلا، أبدا ... لكني قتلت ثعبانا في الجبال بالقرب من «مانيلا» وأكلته. كنت على شفا الموت ... أين قتل زوجك؟».

وهي تجيب «أكيناوا»، أحست بالذكرى كعبء ثقيل، وتجسدت أمامها قوة اللحظة الحالية فقط.

عندما طلع النهار، تلبدت السماء بالغيوم، وكانت تمطر.

وكشخصين منفيين إلى جزيرة مهجورة، كانا يرفعان رأسيهما أحيانا لإلقاء نظرة من جزء النافذة الواضح على سبيل إضاعة الوقت.

روحاهما تحطمتا تماما، كانتا تومضان مثل حراشف سمك لا تحصى. تتوهج كل روح بذكراها المتشظية. ولأنهما عايشا الحرب معا فقد كان هناك شيء مشترك بينهما وبقيا صامتين كأنهما خرجا للتو من طاولة عمليات. إنه حس التعب نفسه الذي يقمع الرغبة في استرجاع الماضي، الذي جعلهما يستلقيان هناك.

وقف الرجل، لبس سترته وذهب إلى الحمام. أخرجت متشيكو علبة تجميلها، رشت البودرة على جبهتها الجافة وخديها، بات صوت المطر المتدافع عبر المصرف أعلى.

حاولت تخمين ما يفعله ليكسب عيشه: مدت يدها بهدوء، أدخلتها في جيوب السترة المعلقة أعلى السرير، عثرت على محفظة جيب بالية وبطاقة اسمية وغليون ومجموعة أوراق نقدية من فئة مئة الين مطوية طيتين بما يعادل أربعة أو خمسة آلاف ين. سمعت ضجة بالمدخل فرمت بالسترة بعيدا وبسرعة حيث كانت وهي تعيد يديها للسرير.

«ياله من برد»، زم الرجل ذقنه وعاد إلى السرير. زحف على بطنه ليسحب المنفضة. نظر في ساعة يده جنب الوسادة، قال: «أظن حان وقت الاستيقاظ».

سألته: «هل ستذهب للعمل الآن؟».

أجاب: «أيبدو علي هذا؟».

وهو يشعل سيجارة ويسحب بعمق، مد إحدى يديه على معدتها. حاولت تصور هدفه الأخير وقد سيطرت عليها إثارة غريبة. فكرت: «ألا يمكن أن تدوم هذه اللحظة فقط يوما أو يومين...».

عندما غاب الليل بدت الجدران الأربعة، لشدة المفارقة، أكثر سوادا.

رنت ساعة المنبه بإصرار أسفل الدرج.

وبشعور متأرجح خال من العاطفة اقتربت منه «متشيكو» ...، لم يعد هناك ماض أو غد ... كتم صوت المطر الهاطل صرخات نشوتها ... فبدأت تعانق الرجل بيأس عنيف، وبدافع انتقام مفاجئ عضت ظفره.

لم تره «متشيكو» ثانية. بعد ذلك غاصت مباشرة في حياتها كعاهرة. شيئا فشيئا اعتادت عملها، وكلما ازدادت الخبرة افتقدت ذلك الانفعال الشديد الذي عايشته في المرة الأولى. وهكذا كيفت نفسها بنجاح لفساد الرجال.

ربما كان ذلك بسبب أن جميع شركائها قد انجذبوا إليها بدافع الضرورة الجسدية، لكنهم بدوا جميعا كأن لديهم شيئا واحدا بأذهانهم. حام حولها البسطاء الذين لم يسألوها أي توضيح، فهي تلفت أنظارهم بوجهها الصغير وجبهتها الضيقة وأسنانها البارزة قليلا، حيث تحاول دائما حجبها كعلامة على عدم الخبرة.

حين يأتي الليل، تتحول «متشيكو» إلى تلك المرأة النشطة التي تتمتع بالحيوية. في ذلك الوقت يحين اختيارها لشريكها. تنظر باهتمام إلى كل رجل يقترب منها، حتى تعلمت أن تُخمِّن قيمة ما في جيبه من نقود عبر نظره.

كانت الريح المندفعة التي تضرب خديها تحثها على فكرة واحدة: هي مفخرة أن يصبح وجودها مهما وضروريا. صار صعبا عليها انتظار مجيء الليل. واكتسبت براعة في إيجاد أماكن مختلفة للنوم.

أصابت متشيكو عدوى مرض تناسلي، لكن طلاب الطب الذين تعرفهم أعطوها البنسلين بسعر الكلفة. كان ثلاثة منهم يتشاركون بغرفة أعلى الدرج، وحين أحست بالألم يدهمها، استلقت فوق شراشفهم المتسخة. أثناء فحصهم لها فحصا عميقا لم تنس أن تطلق لدلالها العنان كفتاة صغيرة تدرك تأثير ذلك في هؤلاء الشبان.

لقد أصيبت بالسل.

كانت «متشيكو» قد تزوجت بعد علاقة حب بديعة، لكن أثر الذكريات الجميلة لم يكن له قيمة أكثر من حلم ننساه في الصباح. تلاشى كل شيء مثل فقاعات بماض سحيق. وتلمح فقط صورة زوجها المتوفى من خلال ملامح ابنتها.

منذ الغارة الجوية في التاسع من مارس على مدينة «طوكيو» وتدمير بيتها في اشهاراتشاو، انتقلت «متشيكو» ست مرات، وها هي الآن تستأجر غرفة بالطابق الثاني لمصبغة «آراك تشاو» في حي «يوتسويا». أبوها كان ضابطا بالجيش وقد تقاعد من عشرين عاما ويدير «بنسيون»، بينما يعمل في شركة تأمين في الوقت نفسه. أمها ماتت في السنة نفسها التي أنهت فيها دراستها بمدرسة البنات، وفور التخرج بدأت «متشيكو» العمل بشركة تأمين في مارينوتشي، العمل الذي أمنه لها معارف والدها.

التقت زوجها في القسم نفسه حيث تعمل، وتزوجا من دون طقوس عرس، كما أخفيا سر زواجهما عن المكتب حوالى السنة. بعد زواجهما بدأت حرب الباسيفيك، وأرسلوا زوجها وراء البحار بنهاية عام ١٩٤٣. كان لديه أخ أكبر في «ناجازاكي»، وكان ضابطا

بحريا مثله، وقد انضم للقتال. لقد ولدت ابنتها قبل رحيله بقليل، وسجلت «متشيكو» اسم البنت في السجلات الرسمية المدنية.

لكن الحياة المعتدلة السلمية لم تستمر طويلا؛ ففي الوقت الذي توفي فيه زوجها «بأكيناوا»، تقاعد والدها لإصابته بالروماتيزم. وانتهت الحرب بعد ذلك بقليل.

رجع أخوها الأصغر «كنجي» من معمل «كاواساكي»، حيث يعمل ويدرس، وذلك لإصابته بالسل أثناء عمله وبات عاطلا. بعد أن تقيأ الدم وهو في طريقه إلى منزل حملوه على نقالة، وبقي طريح الفراش. كان الوضع مستحيلا؛ فتقاعد الوالد، ولم يعد بإمكانه العمل في المكتب نتيجة مرضه.

وبما أن متشيكو تستطيع التحدث بالإنجليزية قليلا، فقد وجدت عملا مع الصليب الأحمر الأمريكي، لكنها بدأت تعاني مرضا مزمنا في رئتيها، لذا لم تستطع الاستمرار أكثر من ستة أشهر.

حاولت العمل كمتجولة لعرض وترويج ثياب المحلات، وكونها ضعيفة جسديا فلم تستطع الاستمرار في تلكم الأعمال طويلا. في أحد الأيام وبالمصادفة البحتة - قابلت «متشيكو» «إيزاوا رنكو».

يعملان أعمالا متشابهة في شركة التأمين، وغالبا ما حاول حثها على أن تصبح عاهرة، تلك المهنة التي يمكن اكتسابها بسهولة. فكرت مليا في إمكان ذلك لعدة أشهر.

كان «رنكو» يقول: «حتى لو سلكت سلوكا مخزيا فلن ينتبه أحد أو حتى يزعج نفسه بالالتفات، ستموتون جميعا من الجوع وأنت

تفكرين في اتخاذ القرار».كانت تقترب من الاقتناع كلما تحدث إليها بهذه الطريقة، فهي حين ترى عيني أخيها المجوفتين، أو تراقب والدها الزاحف، لا يطاوعها قلبها على أن تهين نفسها. لكن عندما رأت ابنتها اميكو، التي تحبها كثيرا، تلعب ببراءة وهي تضع الأزهار في صندوق العظام الفارغ، لم تستطع عمل شيء سوى الترنح. كان وعاء بسيطا يحوي بعض التربة الحمراء أسفله. وضعت اميكو الأزهار في الصندوق وسألتها: «إنها لأبي، أليس كذلك؟».

عندها قررت متشيكو الأخذ بنصيحة رنكو.

طبقا لرأي الطبيب، فإن «كنجي» لن يعيش ليرى العام الجديد، وهي تعبت من أداء دور الممرضة لمرضه المزمن، أحيانا تصلي لأجل موته المبكر. لا بد أنه أحس بموقف أخته. وعادة ما يبقى صامتا طوال اليوم، لكن وفي مناسبات نادرة، حين كان يغضبه شيء، يحدث أن ينتزع «كنجي» كأس الماء بيده الضامرة، ويقذف بها الوالد العاجز، وهو يدعوه «العجوز عديم الفائدة»، فيلتقط الأخير قطع الزجاج الرقيقة المكسورة بيديه المرتعشتين، ناظرا إليه بيأس هادئ. أما «متشيكو» فتقف من دون كلام وتحملق في غضب بأخيها وهي تتضرع لموته المفاجئ. كل صباح، تفتح «متشيكو» عينيها وهي تأمل أن يكون كنجي رحل. وحين تقابلها فجأة عيناه الكبيرتان المثبتتان في السقف، تتنهد بخيبة أمل.

سألته «متشيكو»: «بماذا تحس؟» لكن «كنجي» لم يرد.

«ستشفى وترتاح، فلا تزال شابا وقريبا تتحسن، فقط انتظر وسترى، يقولون إن وظائف الجسد البشري تعمل بشكل أفضل وهي أبرد، فعليك أن تظل باردا».

«لن أموت، ليس عندي نية للموت»، رد «كنجي» بتحد وهو ينظر لأخته ببسمة استخفاف. ارتعدت متشيكو وهي تسترق النظر إلى وجهه المريض الكامد.

قال لها: «اشتري لي بيضتين»، علّى رغم أن سعر البيضة الواحدة الصغيرة اثنان وعشرون أو ثلاثة وعشرون ينا. طلب بعدم اكتراث أشياء يأكلها «لا تنسي شراء البيض، اشتري لي كل ما أطلبه...».

استشاطت غضبا من الداخل.

انتشرت رائحة الأوعية التي يستخدمها المريضان في الحجرة إلى الغرف الداخلية، فشكلت مع رائحة مطهر الكريوسول نتنا حادا. تحملت بصعوبة وهي تتساءل فيما إن كان هناك أي طريقة للخلاص. أما في الصباح الباكر فتبدأ جلبة الغسالة الكهربائية أسفل الدرج تهز الحصير بالطابق الثاني. ودون تغيير هذه الحالة المزرية فلن يكون بإمكانها و«اميكو» استمرار العيش. وهكذا تضرعت بيأس لأجل موت أخيها الأصغر.

حين حل الخريف، امتهنت «متشيكو» مهنة «رنكو». لم تعد تحس بالذنب. وكلما تراكمت النقود، كانت تخبئها كأوراق نقدية ملطخة بجسدها في صندوق عظام زوجها.

قال «كنجي»: «غالبا ما تزورني أمي هذه الأيام».

أجابت: «من المحتمل بأنها تحرسك».

«لن تنتظر بعد الآن».

أخذ جفناها يرفان بسرعة: لماذا تقول ذلك؟».

«لأني أحس بالفرح أحيانا...».

«أنت تستلقي هناك وتفكر في أشياء غبية، هذا هو السبب. لم

لا تطلب مساعدة الوالدة؟».

«أنت محقة، أنا لا أريد الموت ... حقيقة لا أريد. لماذا يحدث لي كل هذا ؟».

لم تجد «متشيكو» أي كلمات تريحه.

«لا أريد أن أموت. من سمع بشخص مات قبل والده؟ اعلمي أني قرأت في الصحف عن المداواة بكرة الطاولة: يقولون هي تساعد إذا وضعت كرات بحجم كرات الطاولة في الرئتين لتملأ الفراغات. لا بد أن هذا النوع من العلاج مكلف....».

سألته: «هل تستطيع حقا فعل ذلك؟».

بعينين متوهجتين. نظر كنجي مباشرة لها وهو يقول: «ألا تستطيعين إقراضي تلك النقود؟».

توردت وذهلت لهذا الطلب غير المتوقع: كيف اكتشف موضوع النقود المخبأة في صندوق العظام؟

«بعد إجراء العملية، سأعمل وأعيدها إليك حين أسترد العافية. أريد أن أعيش، لا أريد الموت، لا أريد الموت بهذه الطريقة»، وتبللت الوسادة بدموعه.

ردت «متشيكو»: «أتريد إجراء عملية؟ لن يكون كافيا. ستكون محظوظا إن عشت يومين أو ثلاثة. ثم افترض أنك أجريتها ولم تنجح؟ بدلا من المخاطرة بذلك، كل ما تشتهيه واهتم بنفسك».

قال «كنجي» بنزق: «اللعنة أنت لا تعطيني ما يكفي من الطعام، بينما يحصل العجوز على كل شيء ويأكله بنفسه. قال لي الأب العجوز أن أسرع بالموت. إنه بخيل جدا، لا يعطيني حتى كأس الشاي. على من أستطيع الاعتماد ليهتم بي؟ «اميكو» الوحيدة التي

تأخذ أي شيء. أما زلت تخبرينها ألا تقترب مني حتى لا تلتقط السل؟ سأنقله لكم جميعا».

ردت متشيكو ساخطة وهي ترمي أشياء «كنجي» الصلبة كلها: «عمَ تتحدث؟ أنت، ألا تفكر كيف أطعمكم جميعا ويوميا؟ قل ... ألا تستطيع التمييز أني بائسة؟ فلتعلم، في إمكاني إن أردت أن آخذ «اميكو» وأذهب من هنا. أنا متساهلة معكما، متساهلة جدا ... ولا يمكنني أن أصير وحشا بلا قلب. حتى أنت لا تفهم لماذا لا أستطيع أن أكون هكذا. فأنا ولدت بحظ سيئ وعاجلا أو آجلا سأمرض مثلك، وأيضا ... إنه سبب ممارستي لهذا العمل القذر، من الأفضل أن تلعن الحرب عن أن تأكل رأسي. ألم يمت زوجي؟ على من ألقي اللوم؟ أريد بيضا! اشتري لي برتقالا! كنت تعمل كغبي بكد شديد في المعمل، وذلك سبب مرضك الآن».

«أنت الغبية، استمعي لي! خذي نصيحتي، واذهبي للمصحة، أو حيثما ترغبين. أنا أقوم الآن بالإجراءات. وتعلمين أن ذلك دون فائدة»، وانتحب «كنجي» بصوت عال.

في المدخل. كان الوالد يجلس صامتا على كرسي من الخوص المكسور، يتشمس مع «اميكو».

نشج «كنجي» بصوت حاد يمكن سماعه بصعوبة، متوسلا كطفل تركوه حيث هو: «سأبقى هنا! ذلك أفضل لي! إن كنت سأموت على أي حال، فأنا أرغب في البقاء هنا».

شعر «كنجي» بالفخر لقيامه بعمل يوحي أنه شريف. كان يعمل بجد، مقتنعا أن على اليابان أن تنتصر. ليس هناك شيء زائف في سلوكه، ولا يفهم لماذا هو الآن بهذه الحالة السيئة على رغم أنه كان

يعمل بجد. خلال انغماسه المحموم كان ممسوسا بروح وطنية. وفي حال نومه أو استيقاظه، لا يبرح رأسه العلم الياباني، يعمل كالآلة، حتى في حرارة الصيف الشديدة المدوخة، لم تنقطع يوما عن العمل.

مات أخوها في صباح يوم مطير من شهر ديسمبر. لم يع الأب ذلك. «اميكو» ابنة السبع السنوات هي من عرف فقط، وذلك بسبب برودة جسمه.

عادت متشيكو في العاشرة، بعد قضائها الليل في الخارج.

وضع الأب أعلى السرير كوب شاي مملوءا بالماء وزوجا من العيدان، ولف نهاية كل عود بشق رقيق من قماش أبيض.

سألت «متشيكو»: «هل مات؟».

ثم راحت ببطء ناحية السرير، ثم رفعت القماشة المتسخة الأرجوانية عن وجه الجثمان. وبينما كانت تحدق في وجه أخيها الخالي من أي ملمح للحياة، راح يندفق من حلقها ضحك هستيري، فأخذت تصرخ فعليا وهي تهز الأخ الميت من صدره. هناك دم على شفتيه وأنفه، والجفنان مفتوحان على وسعهما. وسط الهواء المليء برائحة كريهة، شعرت ببرودة المنطقة المحيطة بالجسد الميت. كأن شيئا ثقيلا وُضِع هناك.

«يقول الناس إن كان «تشان» اختنق بدمه ومات».

ضحكت «اميكو» وهي تريها المنشفة والصحن الغارقين بالدم.

سألت «متشيكو»: «هل علم جدك؟».

ردت اميكو: «كلا»

«هو لم يع حتى أن ابنه يحتضر! هذا بسبب غبائه الشديد!

أبي، أنت ...».

دخلت جارة، كانت تشتري السمك من السوق السوداء، برفق من المدخل لتعبر عن تعاطفها.

قالت: «كان يئن طوال الليل، لكني ظننت أنها شكوى معتادة ولا داعي للقلق، آسفة جدا ...».

وللمرة الأولى، أحست «متشيكو» بالأسى لموت «كنجي» الموحش الذي يكرهه الجميع. كان وجوده القصير محزنا للغاية، صعب عليها رؤية يدي «كنجي» اللتين ضفرهما الوالد على صدره. أمسكت بذهول يدي أخيها. كم كانتا باردتين. سيطر عليها شعور رهيب بالذنب، غاص بها لأعماق الجحيم السحيقة.

وكانت متشيكو مُنهكة تماما.

فجأة رأت الطفل في العربة والمرأة بالمئزر الأبيض. شعرت بالضعف والتعب، كما أحست بيدي أخيها الباردتين لطيفتين بين يديها المحمومتين. وعلى رغم أن ذلك كان كريها لها، إلا أنها ودَّت لو تستمر تعانق يدي كنجي حتى لهذه اللحظة القصيرة.

قالت الجارة إنها ستعود فيما بعد للمساعدة، نزلت وهي تحمل سلة السمك فارغة. في الخارج المطر ينهمر بغزارة.

أنزلت «متشيكو» صندوق العظام من أعلى خزانة الشاي، رفعت الغطاء وهي تفكر أن النقود قد أعدت في النهاية لأجل كنجي. فوق التراب الأحمر كانت كومة الأوراق النقدية الوسخة البالية.

وضعت «شاشا» مصبوغا بأحمر الشفاه على وجه كنجي، ومن وقت لآخر، ينقع الأب أحد طرفي العودين في الماء، رافعا الشاش ليرطب شفتي كنجي.

تمت إجراءات مكتب العناية والتقرير الطبي، بعد أربعة أيام من نقل تابوت كنجي الرخيص للمحرقة في أوكايا بواسطة عربة تجرها دراجة.

باتت الحصيرة أكثر رحابة. وبينما متشيكو واميكو أمام لوحة المصبغة. أخذتا تنظران بارتياب والعربة تمر عبر الزقاق، كانتا ذاهلتين على البركة الصغيرة الموحلة. توترت أذنا متشيكو لتلتقط صوت العجلات المطاطية للعربة، خزنت بحرص في قلبها الصورة البيضاء للتابوت الرخيص وهو يختفي من الزقاق متأرجحا من جنب لآخر.

حاولت «متشيكو» تهوين شعورها بالذنب بافتراض أنها هي أيضا ستلاقي المصير نفسه. بكت بمرارة وهي واقفة بعد في الطريق. في زجاج نافذة المصبغة أخذت تخفق بقعة مثل لمبة مسودة كأنها تعكس غروب الشمس الواهن.

عندما صعدت متشيكو الدرج، كان والدها يتكئ على حافة النافذة. ترك وراءه الحجر الذي استخدموه لدق مسامير التابوت، لقطته ووضعته فوق صندوق عظام زوجها.

إن الموت بالنسبة إلى «متشيكو» أمر غبي وبلا معنى، وأولئك المقدر لهم أن يموتوا ويختفوا تدريجيا من العالم عجزة. لكن ليس هناك خيار آخر للناس أمثالها. في الليلة نفسها التي نقل فيها جثمان أخيها بعيدا، خرجت للشوارع.

إنها ببساطة عاشت في الحاضر دون معرفة السبب، هل ذلك مجرد حظ سيئ؟ إذن، كيف للقدر البشري المحتم عند الولادة أن يكون بمثل هذه الوحشية الحقودة؟ عندما ترى

سيارة جميلة لامعة، أو امرأة أنيقة بمعطف فرو، كانت تحس بغيرة لا تحتمل، كأن جلدها ثُقب بشظية حادة. فهي تنظر بذهول. كيف يمكن لطبقة من الناس ألا تقلق على رغم تجربة الحرب البائسة؟ زوجها شخصيا أخذوه بعيدا ولم يعد.

اقترب عيد الميلاد. جميع رسومات «بابا نويل» في كتب الأطفال صُممت لتثير آمالهم ورغباتهم. لذلك فإن اميكو مؤمنة ضمنيا بوجوده.

في اليوم الثالث لرحيل التابوت، أخذت «متشيكو» ابنتها «اميكو» لمحرقة «أوكايا»، وعلى رغم أنه تم حرقه بأرخص سعر، فقد أودعت عظام «كنجي» جرة الدفن. رفعتها «متشيكو» إلى صدرها وهي تمشي في شمس الربيع المعتدلة عابرة كوخ البلدة الذي بُني في موقع بقايا الأموات.

تجولت «اميكو» وهي تغني «أحببْني أيها المسيح»، التي ربما تعلمتها من أحد الجيران. حاولت متشيكو أن تقاوم الألم في رأسها الدائخ من تأثير محنتها الطويلة، فقد كان الوعاء أثقل مما توقعت.

خلّفت وراءها عربة طفل رثة أمام دكان الحصير. أمسكت «متشيكو» يد ابنتها وهي تدلف للزقاق الضيق. مدخنة المحرقة كانت أقرب مما تتصور. لاحت أمامها بشكل يشبه الصليب. ارتفع دخان أسود من المدخنة الكبيرة عاليا في السماء الزرقاء.

فجأة، خطرت فكرة في رأسها: تساءلت متى سيموت والدها!

المترجمة في سطور

نجاح رئيس سفر

- من مواليد السلمية، حماة - سوريا.
- تخرجت في كلية الآداب قسم اللغة الإنجليزية - جامعة دمشق.
- تعمل مترجمة في جريدة الاتحاد الإماراتية، وهي أيضا كاتبة.
- تنشر متابعاتها وترجماتها في معظم الصحف والمجلات والدوريات العربية.
- من بين ترجماتها: «قصص نسوية معاصرة» وهي مختارات من القصص الحديثة الإنجليزية والأمريكية، كذلك رواية «جنب النهر، جلست أبكي» للكاتب البرازيلي باولو كويلهو، وغيرهما.

المراجع في سطور

د. إسماعيل صافية

- من مواليد عام ١٩٦١، الجمهورية العربية السورية.
- حصل على بكالوريوس في اللغة الإنجليزية وآدابها عام ١٩٨٣ من جامعة دمشق بسوريا.
- ماجستير في علوم اللغة من جامعة إلينوي بالولايات المتحدة الأمريكية، كما حصل على درجة الدكتوراه في علوم اللغة.
- يعمل حاليا أستاذا مساعدا بقسم اللغة الإنجليزية في كلية الآداب بجامعة الكويت.
- نقل من الإنجليزية إلى العربية العديد من المقالات والمنشورات في مختلف الميادين العلمية.



إصدارات قادمة

● طام - طام زنجي

تاليف : ليوبولد سيدار سنغور

ترجمة : د . شربل داغر

مراجعة : د . ليلى عثمان فضل

الكشاف السنوي

قسيمة اشتراك

البيان	إبداعات عالمية		مجلة الثقافة العالمية		مجلة عالم الفكر		سلسلة عالم المعرفة	
	د.ك	دولار	د.ك	دولار	د.ك	دولار	دك	دولار
المؤسسات داخل الكويت	٢٠	-	١٢	-	١٢	-.	٢٥	-
الأفراد داخل الكويت	١٠	-	٦	-	٦	-	١٥	-
المؤسسات في دول الخليج العربي	٢٤	-	١٦	-	١٦	-	٣٠	-
الأفراد في دول الخليج العربي	١٢	-	٨	-	٨	-	١٧	-
المؤسسات في الدول العربية الأخرى	-	٥٠	-	٣٠	-	٢٠	-	٥٠
الأفراد في الدول العربية الأخرى	-	٢٥	-	١٥	-	١٠	-	٢٥
المؤسسات خارج الوطن العربي	-	١٠٠	-	٥٠	-	٤٠	-	١٠٠
الأفراد خارج الوطن العربي	-	٥٠	-	٢٥	-	٢٠	-	٥٠

الرجاء ملء البيانات في حالة رغبتكم في: تسجيل اشتراك [ ] تجديد اشتراك [ ]

الاسم :	
العنوان :	
اسم المطبوعة :	مدة الاشتراك :
المبلغ المرسل:	نقداً / شيك رقم :
التوقيـــع :	التاريخ : / / ١٩م

تسدد الاشتراكات مقدما بحوالة مصرفية باسم المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب مع مراعاة سداد عمولة البنك المحول عليه المبلغ في الكويت .

وترسل على العنوان التالي :

السيد الأمين العام للمجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

ص . ب : ٢٨٦٢٣ – الصفاة – الرمز البريدي 13147

دولة الكويت

أسماء وكلاء التوزيع

الكويت
درة الكويت للتوزيع
شارع جابر المبارك- بناية النفيسي والخترش
ص. ب ٢٩١٢٦ الرمز البريدي ١٣١٥٠
ت: ٢٤٠٥٣٢١ - ٢٤١٧٨١٠/١١ - فاكس ٢٤١٧٨٠٩

دولة الإمارات العربية المتحدة
شركة الإمارات للطباعة والنشر والتوزيع
دبي، هاتف: ٣٩١٦٥٠١/٢/٣ - فاكس: ٣٩١٨٣٥٤/٥/٦
مدينة دبي للإعلام - ص.ب ٦٠٤٩٩ دبي

السعودية
الشركة السعودية للتوزيع
الإدارة العامة - شارع الستين - ص.ب ١٣١٩٥
جدة ٢١٤٩٣ هاتف: ٦٥٣٠٩٠٩

سورية
المؤسسة العربية السورية لتوزيع المطبوعات
ص. ب - ١٢٠٣٥
ت: ٢١٢٧٧٩٧ / فاكس ٢١٢٢٥٣٢

جمهورية مصر العربية
مؤسسة الأهرام للتوزيع
شارع الجلاء رقم ٨٨ - القاهرة
ت: ٥٧٩٦٣٢٦ - فاكس ٧٣٩١٠٩٦

المغرب
الشركة الشريفية للتوزيع والصحف
الدار البيضاء ص. ب ١٣٦٨٣
ت: ٤٠٠٢٢٣ - فاكس ٢٤٠٤٠٣١

تونس
الشركة التونسية للصحافة
تونس - ص. ب ٤٤٢٢
ت: ٣٢٢٤٩٩ - فاكس ٣٢٣٠٠٤

لبنان
الشركة اللبنانية لتوزيع الصحف والمطبوعات
بيروت ص. ب ٦٠٨٦ - ١١
ت: ٣٧١٩١٠ - فاكس ٣٦٦٦٨٣

اليمن
القائد للتوزيع والنشر
ت: ٢٠١٩٠١/٢/٣ - فاكس ٢٠١٩٠٩/٧

الأردن
وكالة التوزيع الأردنية
عمان ص. ب ٣٧٥ عمان ١١١١٨
ت: ٤٦٣٠١٩١ - فاكس ٤٦٣٥١٥٢

دولة البحرين
مؤسسة الهلال لتوزيع الصحف
ص. ب ٢٢٤ / المنامة
ت: ٢٩٤٠٠٠ - فاكس ٢٩٠٥٨٠

سلطنة عمان
المتحدة لخدمة وسائل الإعلام
مسقط ص.ب ٣٣٠٥ - روي الرمز البريدي ١١٢
ت: ٧٠٠٨٩٦ - فاكس ٧٠٦٥١٢

دولة قطر
دار الشرق للطباعة والنشر والتوزيع
الدوحة ص. ب ٣٤٨٨
ت: ٤٦٦١٦٩٥ - فاكس ٤٦٦١٨٦٥

الجزائر
المتحدة للنشر والاتصال
٢٣٨ شارع في دو موبسان الينابيع
بئر مراد رايس - الجزائر
ت: ٤٤٧٦١٦ - فاكس ٥٤٢٤٠٦

دولة فلسطين
وكالة الشرق الأوسط للتوزيع
القدس / شارع صلاح الدين ١٩
ص. ب ١٩٠٩٨ ت: ٢٣٤٣٩٥٤ - فاكس ٢٣٤٣٩٥٥

دولة السودان
مركز الدراسات السودانية
الخرطوم ص. ب ١٤٤١ هاتف ٤٨٨٦٣١

نيويورك
MEDIA MARKTING RESEARCHING
25-2551 SI AVENUE TEL: 4725488
FAX: 4725493

لندن
UNIVERSAL PRESS & MARKETING
LIMITED.
POWER ROAD. LONDON W 4 SPY.
TEL: 020 87423344



المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب

إبداعات عالمية

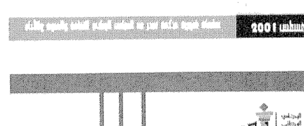
552

مسرحيتان من الأدب الألماني

• الطباخون الأشرار
تأليف: جونتر جراس
ترجمة: د. محسن الدمرداش
مراجعة: د. عطية العقاد

• الجرة المكسورة
تأليف: هاينريش فون كلايست
ترجمة: د. مصطفى محمد أحمد
مراجعة: د. عبد الغفار مكاوي

أكتوبر 2001







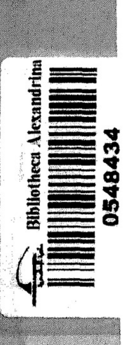
زهرة الصيف

تتكون هذه المجموعة من أربع قصص كتبت بعد الحرب العالمية الثانية، ولكل قصة كاتب يملك أسلوبا وتقنية فنية مختلفين عن نظيريهما عند الآخر.

إن الهدف من هذه المجموعة القصصية هو تقديم حالات إنسانية تتقاتل فيها البشرية من أجل شيء مزعوم لا يستحق كل هذا العناء على مسرح الحرب. وهذه القصص تتجاوز الحالة النفسية بشخصياتها، على رغم أنها - بطريقة ما - جزء من سيرتهم الذاتية التي تخص عالم الأدب.

فقصة «الصيد» لـ «أوي»، الغرض من حكايتها يكمن في تطور العلاقة الإنسانية المستجدة بين أطفال القرية والطيار الزنجي الأمريكي الذي أمسكوا به وسجنوه في المخزن. ويمكننا أن نلاحظ من خلالها ناتج خيال طفل في بداية مرحلته الدراسية مع عدو يراه كالاستعارة الغريبة للمرة الأولى. أما قصة «ساكوراجيما» فتحكي عن ضابط صف بالبحرية يشارك مباشرة في الحرب، لكن بشكل سلبي ومعارض، فنحس بأنه متورط عاطفيا بالحرب، لكنه يتظاهر بالتحفظ والحياد. لقد استفاد «أوميزاكي» في كتابته للقصة من خدمته في قطاع البحرية وهو يحكيها بأسلوب مكثف ومحتوى ثر. وبخصوص «زهرة الصيف» فإن كاتبها «هارا» عاش في «هيروشيما» وقت إلقاء القنبلة الذرية عليها، فهو يسرد لنا سيرته الذاتية المركزة بأسلوب قصصي متحفظ متقشف بخصوص الكلام أو التعليق، وكان هذا جزءا من تراث الأدب الياباني الذي يركز على الجانب الشخصي للتجربة. وأخيرا نصل مع الكاتبة «فوميكو هاياشي»، التي تحكي، في «عظام»، عن أرملة لجأت إلى الشوارع وانحرفت عن الفضيلة لأنها ضحية السلبية البالغة القسوة، إلا أنها تبزغ من ذاتها، من جديد، لتسترد نوعا من الثقة في نفسها.

... إن على القارئ ألا يتوقع أكثر مما جاز لهؤلاء الكتاب أن يعرفوه عن الحرب، فهو في النهاية يحس بذلك الأسى الشفاف الذي سيغلف روحه بعد القراءة، كأنه قام بالصلاة على أرواح كل عزيز فقدناه في مثل هذه الظروف.



ردمك ٠ - ٠٧٤ - ٠ - ٩٩٩٠٦
ISBN 99906- 0 - 074 - 0